المرأة

في الفكر السلفي

ستر البدن أم إغلاق العقل

أمين عمر سيد أحمد

المرأة في الفكر السلفي

ستر البدن أم إغلاق العقل

المؤلف:

أمين عمر سيد أحمد

الناشر:

مشروع الفكر الديمقراطي

سلسلة قراءة من أجل التغيير رقم (33)

مدير المشروع ومؤسس السلسلة:

شمس الدين ضوالبيت

الإخراج الفني:

عبد الكريم عيسى

الطبعة الأولى

يونيو 2015

إهداء...

سلسلة ’قراءة من أجل التغيير..‘

مهداة إلى طلائع هذا التغيير ووقوده في السودان...

إلى الشباب الذين يحملون شعلة الوعي الثقافي المتقدم...

مما ينكره عليهم سدنة الاستبداد والتخلف..

وإلى النساء السودانيات .. ضحية القهر التاريخي.. وأكبر المستفيدات من التغيير..

وإلى أهل السودان في الهامش.. الذين مهروا الطريق إلى التغيير.. بدماء غزيرة..

وإلى أجيال المثقفين.. والمناضلين.. ونشطاء المجتمع المدني...

الذين قضوا أعمارهم... وضحوا بحرياتهم وحيواتهم فداءاً .. للنهضة والتقدم

إليهم جميعاً سلسلة "قراءة من أجل التغيير".

مقدمة المحرر

من المهم أنك تقرأ...
لكن الأهم هو ماذا تقرأ..!!

تواصلت نضالات السودانيين ضد الاستعمار والاستبداد بأشكالهما المختلفة، لما يقارب القرنين من الزمان الآن، وذلك منذ أن تصدت جحافلهم للغزو التركي المصري عام 1821. وحققت هذه النضالات انتصارات عديدة في معارك تحرير الوطن من أسر الاحتلال والاستعمار الأجنبي، ثم من براثن الطغيان العسكري والشمولي المحلي. لكن وعلى الرغم من الانتصارات التي تحققت، إلا أن هذه النضالات لم تحقق غاياتها المنشودة في السلام، والحرية، والديمقراطية، والتنمية، والعدالة الاجتماعية، لكافة أرجاء السودان.

على العكس من ذلك تشهد حركة النضال النهضوى السوداني، لعدة عقود الآن، تراجعاً مستمرًا في الآفاق والطاقات، وتآكلاً متواصلاً في البنيات الحاضنة للحداثة والتقدم. فقد شهدت البلاد حرباً أهلية عظمى لمعظم سنوات ما بعد الاستقلال، إنتهت – بعد أن قضت على الأخضر واليابس– بانفصال جنوب السودان. وقضى الوطن جل سنوات ما بعد الاستقلال في ظل أنظمة

شمولية حرمته نعمة التنفس المطمئن في رحاب الحرية، وتذوق العيش الكريم لمكوناته المتعددة في ظل الديمقراطية. ولم ينجز السودان في مضمار التنمية إلا أقل القليل من ذلك الذي تعد به إمكاناته الذاخرة الوفيرة، ولم يسلم حتى هذا القليل من الانحيازات الجهوية، إبتداءاً، ثم الإهمال وسوء الإدارة والفساد والانهيار في آخر الأمر. وكانت النتيجة هي اشتعال حروب أهلية جديدة، وانتشار العنف في كل مكان في السودان، ليعبرا معاً عن حجم الغبائن، والمظالم، ومقدار الفشل الذي وصلت إليه المشاريع السياسية المتعاقبة.

لقد تحول السؤال عن أسباب الفشل المتواصل الذي ضرب الدولة والمجتمع في السودان، والعنف الذي تفشى في مجتمع كان يفاخر بأنه مجتمع التسامح والتعايش السلمي، والعجز الذي شل النخب السودانية عن أن تحافظ على وحدة التراب السوداني، مثلما فعلت مثيلاتها في غالبية دول القارة الافريقية، حتى وإن عجزت هذه أو تلك من بينها عن تحقيق التنمية المرجوة، أوأخفقت في الوصول إلى نظام ديمقراطي يقوم على قيم العدالة والحكم الراشد– تحول هذا السؤال عن الأسباب ليصبح سؤالاً دائماً، وملحاً، ومقلقاً، بعد أن بلغ فشل المشاريع السياسية، وخطر التمزق والتفتت حداً يهدد بنسف ما تبقى من كيان الدولة والمجتمع في السودان.

خبر المجتمع السوداني، في تاريخه المعاصر، العديد من المشاريع السياسية، والتي بدأت ارهاصاتها مع نشأة طبقة المثقفين الحديثة في السودان، في الربع الأول من القرن الماضي، حين ظهرت النواة الأولى لسلسلة من الإسهامات التنويرية، وبدأت الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، ومحاربة العادات الضارة، وإلى المواطنة، والتحرر، وتقرير المصير. وكان ذلك مع قيام نادي

الخريجين عام 1918، وجمعية الإتحاد السوداني 1920، وجمعية اللواء الأبيض عام 1923. وقد تواصلت جهود القوى الحديثة والحية في المجتمع السوداني في الموجة الثانية من النضال الوطني، التي أعقبت ثورة 1924، وحتى قيام مؤتمر الخريجين عام 1938، ثم في الموجة الثالثة التي شكلها جيل الحركة الوطنية، والنضال من أجل الاستقلال، والحق في تقرير المصير.

كذلك خبر السودانيون، في مراحل تاريخهم المستقل، تجارب عدة مع أنظمة وطنية للحكم تحمل هي الأخرى ملامح لمشاريع سياسية: بدءاً بالأنظمة الديمقراطية الليبرالية في الفترات (1953 – 1958)، (1964 – 1969)، (1985– 1989)، ثم حكم الجنرالات في ظل نظام عسكري خالص (1958– 1964)، ثم نظام حكم عسكري مختلط بنظام الحزب (الاشتراكي) الواحد (1969– 1985)، وحتى نظام الحركة الإسلامية السودانية، ذي الطابع العقائدي العسكري.

وصلت إلى دست الحكم في ظل هذه الأنظمة فصائل من القوى الطائفية، ورجال الإدارة الأهلية، والتجار، والمثقفين الليبراليين، والتكنوقراط عسكريين ومدنيين، والمثقفين العقائديين، والثوار، بل وبعض التنظيمات الإقليمية المسلحة... ولكن ومع تعاقب المراحل والقائمين عليها، إلا أن أياً من المشاريع، أو الشرائح الحاملة لها، لم تتمكن من إحداث الاختراق الذي ينهض بالسودان من الكبوة التي تدرج في اتونها. وعلى الرغم من صحة القول بأن الديمقراطيات لم تحظ بالوقت الكافي للحكم عليها، إلا أن هشاشة نظمها، وضعف جذورها في المجتمع، وعدم قدرتها على الصمود أمام الانقلابات العسكرية، تشكل في حد ذاتها ظاهرة تتطلب الدراسة والتمحيص والبحث في أسبابها.

كانت – ولا زالت – واحدة من مشكلات السياسة والحكم في السودان: أنها لا تعطي أهمية للدراسة والبحث والفكر. يصدق ذلك على وجه الخصوص عندما تكون للظواهر السياسية أبعاداً دينية، متعلقة بالفكر الديني، كما هو الحال في السودان.. لذلك تجاهلت مبادرات ومحاولات الاصلاح والتحديث والنهضة– باستثناء المساهمة المهمة للفكرالجمهوري، وعلى الرغم من أشكال المقاومة المختلفة للهامش السوداني – تجاهلت الأبعاد الفكرية للظواهر السياسية، واستندت مشاريعها على السعي لـ 'لصق' منتجات العلم والحداثة على بيئة فكرية وثقافية، لم تكن فقط غير معدة لاحتضان هذه المنتجات، بل تتخذ مكوناتها مسارات وتستبطن آلياتها ديناميات تتعارض وتتناقض جذرياً مع قيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، واستحقاقات التعددية الثقافية للمجتمع السوداني. فلم يكن مستغرباً أن يكون مصير هذه المبادرات هو الفشل، ومصير السودان هو هذه الحالة التي تدهور إليها.

لقد أثبتت مجريات الأمور، ومآلات الأوضاع في السودان أن لغياب الفكر ثمناً فادحاً. هذه هي النتيجة التي ينطلق منها مشروع الفكر الديمقراطي وقراءة من أجل التغيير، في هذا المسعى الهادف للمساهمة في التأسيس لمشروع فكري نهضوي سوداني، يكشف ويسلط الضوء على الأبعاد الفكرية والثقافية للآليات التي تكمن وراء التخلف والاستبداد، بغية تفكيكها، سواء في أشكالها المعلنة، والمستترة، والمسكوت عنها، أو الشعبية، والسياسية، التقليدية، والمتطرفة. والغرض هو: إزالة العوائق والعقبات أمام الحداثة الإيجابية، وتمهيد أرضية ثقافية حاضنة وقابلة لتوطين مفردات التقدم والنهضة، هذا من جانب.

من الجانب الآخر يهدف المشروع للإسهام في التعريف بهذه المفردات، بما في ذلك قيم الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، واحترام التنوع الثقافي، في صلتها بالدين والثقافة في السودان، والعمل على غرسها، وتوطينها، وتحويلها إلى تيار مجتمعي عام، في الفكر والممارسة السياسية. بصورة مجملة فإن الهدف الرئيسي للمشروع هو المساهمة في اعادة تأسيس فكرنا السياسي وثقافتنا السياسية على قواعد تعتمد العلم والعقل والتجربة الإنسانية الواعية، وتأخذ بنتائجها، وتعزز وتحقق التنمية، والعدالة الاجتماعية، وتحفز للنهضة والتقدم.

ويصدر مشروع قراءة من أجل التغيير عن قناعة ترى أن على القوى الحية في المجتمع السوداني ألا تدير ظهرها للجوانب الثقافية، وألا تنأى بنفسها عن ساحة الفكر الديني، بدعوى أن الذى يسيطر عليها حالياً هو الفكر الخطأ، فتلك استراتيجية خاطئة أيضاً، لأنها تعزل هذه القوى الحية، وتحول بينها وبين الوصول إلى قواعدها الطبيعية. لقد أكدت التجربة والمعارف الإنسانية أهمية العوامل الثقافية، والدينية منها على وجه الخصوص، في تشكيل الفكر والسلوك والممارسة، بوصفها أعظم أركان القوة الإنسانية تأثيرا في الناس، بما يمكن أن تستثيره من عواطف جياشة وعاصفة، يمكن أن تكون مدمرة أحيانًا، والمجتمع السوداني ليس استثناءاً من هذا، بل هو نموذج حي بما يجري فيه لمفعول هذه الجوانب الثقافية!

بدلاً من ترك ساحة الفكر للسلفية الدينية، يسعى مشروع قراءة من أجل التغيير، إلى المساهمة في إيصال منظومة فكرية بديلة إلى عامة الناس، تحل محل المنظومة الحالية، التي عجزت مكوناتها عن مجابهة التحديات

المستجدة، والتعامل مع التطورات الحادثة، وعن إيجاد حلول للإشكالات المجتمعية، وهذه العملية – عملية التأسيس لمنظومة فكرية بديلة– برهنت التجارب الإنسانية أنها لا يمكن أن تأتي إلا من داخل تراث المجتمعات. ذلك أن القدرة على امتلاك ناصية العقلانية والحداثة والتقدم تتطلب تبيئتها وتأصيلها، واقامة الجسور مع اللحظات الحية، والشعلات المنيرة فى هذا التراث. فالحكمة المتوارثة هي: نعم، قد يزحزح الإيمان الجبال، ولكن المعرفة العلمية والصدق التاريخي وحدهما القادران على زحزحته إلى المكان السليم.

ويجئ تصميم مشروع قراءة من أجل التغيير بصورة ترجو أن تعيد الاعتبار لحلقات القراءة، والحوارات الفكرية، خاصة في أوساط المرأة والطلاب والشباب وقطاعات المهمشين، وإحياء الدور الهام الذى لعبته هذه الحلقات والجمعيات العديدة، وعلى رأسها جمعيتي ابوروف والموردة، في العاصمة والمدن الأخرى، فى السنوات العجاف، التى أعقبت القضاء على ثورة 1924م، وبحيث تشكل سلسلة اصداراته، في مجموعها، مخططاً استراتيجياً، نرجو أن تكون مكوناته هي لبنات المشروع النهضوي السوداني القادم، بإذن وتوفيق العليم الحكيم.

شمس الدين ضوالبيت

المحرر

10 فبراير 2013م

المحتويات

"إن الله لا ينظر الى أجسامكم ولا إلى صوركم
ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"
رواه مسلم

❁❁❁❁❁

"كان الرجال والنساء يتوضؤون في زمان رسول الله (ص) جميعا" – رواه البخاري
"من اناء واحد" – إضافة ابن ماجة
"ندلي فيه أيدينا" – إضافة أبوداود
"ربما اختلفت يدي ويد رسول الله (ص) في الوضوء من إناء واحد" – إضافة ابن ماجة عن أم صبية الجهنية

تمهيد

لا شك أن المجتمع المسلم المعاصر يعاني من أزمة عميقة تقف حائلاً بينه وتحقيق أي تقدم ملموس يجعله يسهم في التقدم الإنساني؛ حيث تتجلى مظاهر هذه الأزمة بأشكال مختلفة ومتنوعة من ضمنها ضعف المجتمع المسلم في مجال العلم والمعرفة، وهوانه في المجال السياسي والعسكري، وتدني فعاليته في المجال الإقتصادي، وتخلفه في المجال الاجتماعي.

ليس من أهداف هذا الكتاب التناول المفصّل للتفسيرات والتحليلات التي تحاول الوقوف على الأسباب الكامنة وراء هذا الآداء المريع، إلا أن السبب الرئيسي والجوهري، في تقديرنا، يكمن في العقل المسلم، الذي إكتمل تشكيله تقريباً بنهاية القرن الثالث الهجري، وإتخذ سماته الحالية منذ ذلك الحين. ونقصد بالعقل المسلم تلك المفاهيم والأنشطة الذهنية التي تحدد وتحكم رؤية الإنسان المسلم للعالم المحيط، وطريقة تعامله معه؛ حيث من سمات ذلك العقل الواضحة، السطحية الشديدة والميل المفرط لتبسيط الأشياء، والإصرار على

إضفاء طابع ديني على كل جانب من جوانب النشاط الإنساني. كما أن من تلك السمات الملازمة له، الجنوح الشديد لإستدرار العاطفة وإثارة الحماس وإلهاب المشاعر، والتركيز على إسترجاع صور زاهية من ماضي الدولة الإسلامية الأولى وتقديمه بشكل يوحي بإمكانية تكراره بذات النمط رغم إختلاف الشروط الموضوعية والذاتية.

يسند هذا العقل المأزوم، وجدان مأزوم أيضاً. ونعني بالوجدان هنا مزيج المشاعر والعواطف الذي يتحكم في نشاط وتصرفات الفرد ويؤثر في تحديد أهدافه الحياتية. لقد تم صياغة هذا الوجدان عبر قرون طويلة تحت تأثير سلطة بالغة السطوة، وطاغية القوة والتأثير، وهي سلطة التقليد. و هي سلطة معنوية تشير لسيطرة منهج وفقه وفكر القرون الأولى التي أعقبت الرسالة المحمدية على كامل طريقة تفكير المجتمع المسلم في العصور اللاحقة. كما تشير هذه السلطة أيضاً لمؤسسة الكهنوت الإسلامية، المرتكزة على الجيش الجرار من العلماء والائمة والفقهاء والوعاظ، والتي تقف حارساً أميناً للحفاظ على هذا الوضع والدفاع عنه بشراسة، وبكل الوسائل المتاحة؛ خاصة إذا كان هنالك رأي يستهدف دحض أو مناقشة القواعد المؤسِّسَة، أو ما ينتج عنها من آراء وأحكام من "الكبار" الذين أضحت آراؤهم نفسها ذات قدسية لا تقل عن المصادر المؤسِّسَة نفسها.

إن من أوضح مظاهر وتجليات أزمة المجتمع المسلم هذا التركيز الشديد على مسألة "الحجاب"، بشكل تحولت فيه قطعة قماش، بقدرة قادر، لتصبح رسالة المسلمين للآخرين، ورمزاً لحضارتهم، وعنواناً لنسقهم الأخلاقي. لو أهرق المداد الذي إستنزفه هذا الموضوع في مجال آخر من مجالات المعرفة، أو أستغل الزمن الذي ضاع في الصراع حوله فيما ينفع الناس، والمسلمين بالأخص، لما كان حال المسلمين كما هو الآن يتذيلون شعوب الأرض في شتى محاور التقدم البشري.

لا إختلاف بين الناس في أن لكل ديانة طقوسها ورمزياتها وتعاليمها التي يجب على الآخرين إحترامها وإعطائها الفرصة لإثبات نفسها. أيضاً لا إختلاف في أن بعض هذه الطقوس والرمزيات ربما يصعب او يستحيل التعاطي والتحقق منها باستخدام الجهد العقلي وحده، باعتبار انها تدخل في نطاق استحقاقات عبودية المخلوق للخالق، وانها فرضت في الاصل للتعبير عن ذلك، وهو ما يتطلب الإقتناع والتسليم بها حتى في حالة تعذر فهم مغزاها عقلاً. وكمثال على ذلك، فليس هناك ما يمكن مناقشته حول سبب القراءة في بعض ركعات الصلاة سراً وفي بعضها جهراً، أو الحكمة من تقبيل الحجر الأسود عند الطواف عند المسلمين. بيد أن هنالك من تعاليم الدين ما توجد مساحة كافية لمراجعته والنقاش حوله وهي التعاليم المرتبطة بالمعاملات وحياة الناس اليومية، ومن ضمنها ما يتعلق بملبسهم، حيث أن ظروف البشر تختلف بإختلاف الزمان والمكان، ويدخل في ذلك ملبسهم الذي تتدخل عوامل شتى، بيد أنها معقدة، في تحديده. إنه، وفي ظل الحركية التي تسم حياة الإنسان، لا يمكن لفكرة تتعلق بحياة البشر اليومية أن تكون لها صفة الأبدية مهما كان مصدرها أو أصلها.

ربما يندهش الفرد العادي من حقيقة أن كلمة الحجاب لم ترد في أي نص ديني للإشارة لما تعارف عليه مجتمع اليوم من أنه يعني لبس المرأة "الشرعي" الذي يعني تغطية الراس وباقي الجسد عدا الوجه والكفين! حيث جاء في كل المواضع التي ذكره فيها في القرآن الكريم بمعنى حاجز أو ساتر وهو أمر يؤكد لنا وجهاً من وجوه أزمة العقل المسلم الذي يقبل المسلمات بدون مراجعة.

إنه وعلى الرغم من ورود كلمة حجاب بالقرآن عدة مرات، إلا أن الاستخدام الوحيد الذي ربما التبس على البعض هو ما جاء بسورة الأحزاب: "ايا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا

دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما"[1]، وهو استخدام واضح لايشير بتاتاً لملبس، حيث أن المقصود بالكلمة في الآية ساتر أو حاجز أو ما إليه، كما ان الأمر يختص بأزواج الرسول بدليل أن الاية ذاتها، كمثال، تحرم نكاح ازواج الرسول مطلقاً بينما يباح ذلك للكافة.

لهذا الكتاب هدفين رئيسيين. أحدهما تقديم مثال حي على مأساة العقل المسلم الذي يقبل الخضوع لآراء ناس عاديين من لحم ودم فهموا نصوص الدين وفسّروها وفق ما كان متاحاً لديهم من معارف في زمانهم، وإستناداً على محددات البيئة التي كانوا يعيشون فيها؛ بيد أن آراؤهم تلك تحوّلت لمقدسات في حدّ ذاتها بسبب غلبة التيار الرجعي وسيطرته على الحكم منذ تأسيس الدولة الأموية. لقد أدت أزمة العقل المسلم إلى جعل قضية "الحجاب" تحتل حيزاً بالغ الإتساع في إهتمامات المسلمين وخطابهم الديني والفكري والسياسي لدرجة جعلوا منها رمزاً لديانتهم؛ على الرغم من أن سندها الديني والعقلي من الضعف بحيث يمكننا القول، وبثقة، إنه لا أساس لهذه القضية إبتداءاً! مما يجعلها بحق تمثل نموذجاً جيداً لتلك المأساة.

الهدف الآخر الذي نسعى إليه، هو مساعدة المرأة المسلمة في الدفاع عن قضيتها العادلة التي تتركز حول حقها في المساواة في الإنسانية، والتي تعني هنا تحديداً قيمة أن ينظر لها كمخلوق سوي، صحيح العقل والبدن والنفس، لا

---

[1] سورة الأحزاب – آية رقم (53)

إختلاف بينها وبين الرجل إلا في حدود ما تمليه الإختلافات البيولوجية بينهما، وأن مسئوليتها عن الشرور والآثام، إن وجدت، تتساوى مع مسئولية الرجل.

إن موقفنا هذا، والمبني على رفض النظرة السلفية الحالية للمرأة بإعتبارها انثى وليس إنسان، يجعلنا نرفض مفهوم الحجاب لأنه يقوم على أرضية أن المرأة عورة، وليس لإستناده على إعتبارات صحية أو جمالية مرتبطة بالمكان والزمان. أن النظرة السلفية التي تصب جل إهتمامها على تجريد المرأة من إنسانيتها عبر التركيز على جسدها، لا تختلف في جوهرها عن تلك الموجودة عند البعض في المجتمعات المتقدمة، والتي تعمل على تجريد المرأة من ملابسها إنطلاقاً من ذات النظرة: المرأة الأنثى وليس المرأة الإنسان.

الحجاب في التاريخ والسياسة

إن الدعوة لتغطية شعر المرأة وكامل جسدها دعوة قديمة في التاريخ، وقد عرفتها كل المجتمعات القديمة تقريباً، ومن قبل ظهور الأديان. تنبثق هذه الدعوة من فرضية رئيسية مشتركة بين كل حضارات العالم القديم بشكل عام، وهي أن المرأة مصدر للآثام وأن جسد المرأة عورة. والحال كذلك، تصبح مسألة تغطية ذلك الجسد، رغم الإختلاف في درجة التغطية وكيفيتها، هي العنصر الفعال لتلافي تلك الشرور النابعة منه.

لقد لعب الحجاب دوراً آخر في التاريخ، حيث إنه مثَل في أحيان كثيرة أداة للتفريق بين الحرائر والإماء. فكل المجتمعات القديمة، شهدت بقدر أو آخر، وجود طبقة من العبيد رجالاً ونساءاً. ومن المعلوم أن دور الرجال من العبيد ينحصر في العمل البدني الشاق لمصلحة الأسياد، بينما دور الإماء يتركز في متعة هؤلاء الأسياد عبر إستباحة أجسادهن، وهو دور قريب من دور الزوجات الحرائر. وحيث أن الأَمة في التاريخ العبودي، هي شيئ وليست بإنسان مكتمل، يصبح إستباحتها

من قبل الآخرين أمراً محتملاً ولا يؤثر أو يمس شرف السيد، لذا كان تغطية جسد الحرائر رمزاً اجتماعياً لتأكيد هذه الخصوصية، ولحماية الشرف الذي تمثله هنا الزوجة الحرة.

لقد عثر المنقبون في إحدى اللوحات الطينية في مدينة آشور القديمة على أحكام خاصة بحجاب النساء جاء في مقدمتها : "لا زوجات الرجال ولا الأرامل ولا النساء الآشوريات اللاتي يخرجن إلى الطريق يمكنهن ترك رؤوسهن مكشوفة. بنات الرجل سواء ارتدين شالاً أم جلباباً أم عباءة، لا ينبغي لهن ترك رؤوسهن مكشوفة. السرية التي تخرج إلى الطريق مع سيدتها يجب أن تحجب نفسها. العاهرة المقدسة التي تزوجها رجل يجب أن تحجب نفسها في الطريق، أما التي لم يتزوجها رجل يجب أن تترك رأسها مكشوفة في الطريق ويجب ألا تحجب نفسها، المومس يجب ألا تحجب نفسها، ويجب أن يكون رأسها مكشوفاً"[2].

إقتبس الفرس تلك العادة من الآشوريين عند سيطرتهم على بلاد ما بين النهرين وانتقلت منهم إلى بلاد الشام وبعض المدن العربية شمال جزيرة العرب قبل الإسلام، ثم بعد ذلك انتشر الخمار والبرقع بين نساء بيزنطة وفارس وطروادة وإسبرطة وغيرها من الممالك والحضارات القديمة[3].

لقد كان البرقع مفروضاً أيضاً على اليهوديات، وقد ذكر في أكثر من موضع في العهد القديم (التوراة) حيث جاء: "ورفعت رفقة عينيها فرأت إسحق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا فقال

---

[2] الحجاب – رؤية عصرية، إقبال بركة. نقلاً عن: قصة السفور والنقاب وإختلاط الجنسين عند العرب للدكتور محمود سلام زناتي – الناشر دار كيوان للطبع والنشر والتوزيع 2003 .

[3] المصدر السابق.

العبد هو سيدي، فأخذت البرقع وتغطت"[4]. فرض اليونانيون القدماء على نسائهم الحجاب والنقاب منذ القرن الخامس قبل الميلاد، حيث كانت نساء طيبة (اليونان) يتنقبن فلا يرى من وجوهن سوى العيون. وقد اتسم المجتمع اليوناني القديم بتقليل شأن المرأة وإزدرائها والحض على تجنبها، وساد هذا الفكر في نظريات فلاسفة اليونان القدماء وأقوالهم مثل أرسطو وأفلاطون وقد انتقل موقفهم هذا للمفكرين المسلمين الذين درسوا فلسفة اليونان وعلومهم كعبدالله بن المقفع (الفارسي) الذي كان أول من دعا إلى حجاب المرأة في العصر العباسي ونشر بين رجال عصره آراء اليونانيين فيها[5].

"إن النظم الاجتماعية، والقوانين والتقاليد كلها من فجر البشرية حتى مشارف العصر، واليهودية والمسيحية تحالفت على تأخير المرأة، وإعطائها صفة دونية وحرمتها من الحقوق والاستقلال بشئونها كاملة، وفرضت عليها وصاية الأب، وحدث هذا قبل الإسلام بوقت طويل بحيث يمكن القول إن الحجاب فرض نفسه على الإسلام لا أن الإسلام فرض الحجاب على المراة"[6].

---

[4] المصدر السابق - نقلاً عن سفر التكوين الإصحاح 24 من العهد القديم التوراة.

[5] المصدر السابق.

[6] نشرت العربية.نت في مطلع نوفمبر 2010 لقاء مع المفكر الإسلامي جمال البنا الشقيق الأصغر لمؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا، ذكر فيه أن لا لزوم للحجاب، وشعر المرأة ليس عورة. وأضاف أن الحجاب يحول عمليا دون مشاركتها في الحياة العملية، فالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد غيرت من وضع المرأة، مما يستدعي تغيير المفاهيم بشأنها وما يستتبعها من حجاب أو غير حجاب. وأوضح أن شعر المرأة ليس عورة ولا يوجد أبدا في الكتاب والسنة ما يقول ذلك، وهناك حديث في صحيح البخاري بأن الرجال والنساء كانوا يتوضؤون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من حوض واحد في وقت واحد، فكيف أذن تتوضأ المرأة

الحجاب والسياسة

الحجاب بشكله الراهن ليس أكثر من شعار سياسي مستحدث في العقود الثلاث الماضية، وتحول إلى فريضة دينية مزعومة بحكم التمدد الكبير لجماعات الإسلام السياسي في العالم الإسلامي. لقد أدت عوامل مختلفة من فكرية وسياسية واجتماعية، لهذا البروز الصارخ لدور الجماعات الإسلامية المختلفة وأعطاها قوة الدفع الهائلة التي لا تزال تجعلها في صدارة الأحداث على مستوى العالم بأجمعه حتى الآن. ما يهمنا في هذا الحيز، توضيح الأسباب التي جعلت من هذه الجماعات أن تعطي هذا التركيز البالغ على قضية الحجاب رغم

وهي مقنعة مرتدية ذلك اللباس الذي يجعلها شبحا أسود. كيف تغسل وجهها وقدميها ويديها إلى المرفقين، وكيف تمسح على شعرها. لقد استمر هذا الوضع طيلة حياة الرسول وفي جزء من خلاقة أبي بكر الصديق وجزء من خلافة عمر الذي فصل بين الرجال والنساء في الوضوء من مكان واحد. وأضاف المفكر الإسلامي: ليس في القرآن والسنة أمر بالحجاب مطلقا. القرآن عندما قال "وليضربن بخمرهن على جيوبهن"، كان ذلك في إطار الحديث عن لباس اجتماعي سائد في ذلك الوقت. فالرجال يلبسون العمائم والنساء تختمر لتقي نفسها من التراب أو من الشمس، وبالتالي فالمسألة لا علاقة لها بالدين، ومن هنا امر القرآن أن تسد المرأة فتحة الصدر بالخمار الذي كانت ترتديه كعادة اجتماعية، لكنه لم يأمرها بان ترتدي الخمار ولم يقل إنه من الضروري أن يغطي الرأس. القرآن ليس فيه آية واحدة تحث على الحجاب إلا بالنسبة لزوجات الرسول، وهو ليس زيا وإنما باب أو ستار. وأضاف: الإسلام لا يطلب من المرأة أن تغطي شعرها أو تنزع ذلك الغطاء، هذا ليس شأنه، وإنما يدخل في إطار حقوقها الشخصية. وقال لا أجد حرجا مطلقا في أن تصلي المرأة بشعرها، ومع ذلك لابد أن نفرق بين كونها في الشارع، فلا نرى ضرورة لأن تلبس غطاء على رأسها، وبين أن تكون في الصلاة فترتديه، وإن كنت لا أرى حرجا في أن تصلي بدونه.

ثانويتها قياساً بالقضايا الجوهرية، كقضايا التحرر الإقتصادي، والتنمية المستدامة، وقضايا تطوير التعليم والإستثمار في العلم، وما إلى ذلك.

فلغياب أي مشروع نهضوي لهذه الجماعات، بحكم تكوينها الفكري و بحكم نوعية القوى الاجتماعية الداعمة لها، رأت في تعاليم الدين الإسلامي بنسختها السلفية، خير معين لها في معركتها من أجل الوصول للسلطة. فالخطاب السياسي والفكري الذي تحتاجه سهل جداً، أساسه الرجوع لنقطة البداية، لما كان عليه الوضع في صدر الإسلام، بإعتبار أن ذلك الوضع يمثل الإرادة الإلهية، ويعتبر النموذج الذي طبقت فيه تعاليم السماء بشكل حرفي. ونسبة للسمات الخاصة بالعقل المسلم، تلك التي تطرقنا لها بشكل عام فيما سبق، حررت جماعات الإسلام السياسي نفسها من عبء تطوير برامج سياسية واقتصادية واجتماعية قادرة على التصدي لقضايا العصر المعقدة، و استعاضت عن ذلك، وفي انتهازية مشئومة؛ بإستخدام الخطاب الديني الذي يعتبر أفضل منفذ لعقل ووجدان الفرد المسلم من أجل إجراء إختراق سريع ومتسع بوتائر متصاعدة على كل جوانب الحياة. فكل ما هو مطلوب تعبئة الفرد المسلم بأن حاله لن ينصلح إلا بما إنصلح به حال السلف وهو تطبيق تعاليم الإسلام بكل حذافيرها.

هذا من ناحية؛ ومن الناحية الأخرى ركزت تلك الجماعات تركيزاً كبيراً على جانب الأخلاق الاجتماعية باعتبار أنها هي التي تميز المسلمين عما سواهم. ويأتي على رأس هذه الأخلاق، مسألة الحفاظ على عفة المرأة، حيث صوروا موضوع الحجاب باعتباره المسئول الأول عن تحقيقها. وامتدت أساليب الدعوة لا لتشمل فقط إقناع المسلمات بجدواها ومنطقيتها، بل لجأت وبشكل صارخ لإرساء مناخ كامل من الإرهاب الناعم القائم على تخويف النساء بعظمة الإثم الذي يرتكبنه في حالة عدم خضوعهن لاستخدام الحجاب؛ كتخويفهن بعذاب القبر

والعذاب العظيم الذي ينتظرهن يوم القيامة، بسبب بعض الشعيرات التي ربما تتطاير من تحت لباس الرأس! ترك ذلك أثره الكبير وسط النساء وحجّم من أدوارهن ومشاركاتهن في الحياة العامة خاصة في الأوساط الفنية والرياضية والثقافية والسياسية.

غني عن القول، إن الإسلام لم يبتدع أي زي سواء للمرأة أو للرجل وكل ما في الأمر هو دعوته للحشمة لدى الجنسين، وما تسعى له الجماعات الإسلامية من فرض ما يسمى بالحجاب على النساء لا يعدو أن يكون محاولة للكسب السياسي والإدعاء بتمدد وانتشار نفوذهم وازدياد قواعدهم ومسانديهم وذيوع فكرهم بين الجميع حتى وإن كان مخالفاً للدين، أسلوبهم هو التعصب الأعمى ومبتغاهم هو كرسي السلطة بامتيازاته وملذاته والذي تقف تجربة الإسلام السياسي في السودان دليلاً ساطعاً عليه.

وجوبية الحجاب - المرجعية العقلية

قبل أن نناقش صحة فرض الحجاب بواسطة النص الديني أو عدمه، لابد من الإشارة إلى أن هنالك صورة ذهنية مسبقة وراسخة لعبت دوراً كبيراً في تفسير أو تأويل النص الديني ليلزم المرأة بتغطية كل جسدها. وهذه الصورة والتي ليست وليدة اليوم، ولا قاصرة على المجتمع العربي والمسلم وحده كما أسلفنا، تفترض أن جسد المرأة، أصلاً، هو المصدر الرئيسي للفتنة والإثارة وبالتالي هو المحفز للإغواء وتالياً للرزيلة، على ضؤ ذلك يصبح أمر تغطيته بالكامل هو السبيل للحفاظ على العفة وعلى سلامة المجتمع وتماسك قيمه الأخلاقية.

تتمثل الوظائف الأساسية للملبس بشكل عام في ثلاثة مهام: أولها حماية جسم الإنسان والحفاظ عليه من الأخطار سواءاً كانت ناتجة عن الطبيعة أم عن الإنسان نفسه، ثانيها ستر الأجزاء من الجسد التي لها خصوصية بالغة لدى كل أجناس النوع الإنساني وعلى تنوع حضاراتهم ودرجات تطورهم، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العورات، وثالثها التعبير عن الشخص المعني وتفرد ذاته، وإضفاء

لمسات جمالية عليه. لا ينفي هذا تدخل مؤثرات كثيرة، إضافة لتلك التي سردناها، في تحديد خصائص الملبس من ناحية الشكل واللون والقوام وما إلى ذلك؛ حيث من هذه المؤثرات الثقافة، الدين، الخيال، طبيعة العمل، قبول المجتمع إلخ. كما لا ينفي ذلك أيضاً إمكانية استخدامه لإيصال رسالة معينة للآخرين أو لفت إنتباههم لأمر ما، عبر استخدام عناصره المختلفة كاللون أو التصميم، وهو أمر تعتبر ثقافة المجتمع هي المحدد الرئيسي له.

على الرغم من إتفاق كل المجتمعات والديانات تقريباً على منظومة من القيم الكلية (كأمثلة: الصدق، الحشمة، الشجاعة، الطموح)، إلا أننا نرى أن هناك اختلافات جوهرية في فهم وممارسة هذه القيم، وهي إختلافات يمكن النظر إليها من ثلاثة زوايا. الزاوية الأولى تتعلق بالشكل الذي تتجلى به هذه القيم المجردة. فقيمة الصدق في المجتمع الغربي، مثلاً، تأخذ منحى الإحترام الشديد لعنصر الوقت في تنفيذ الأعمال، والصراحة في إبداء الرأي، إضافة للعناصرالأخرى. بينما نجد إختلافاً كبيراً في الشرق العربي في التقيد بتلك العناصر حيث يسود قدر عال من اللامبالاة عند التعامل مع عنصر الوقت، كما أن للمجاملة وجوداً أكبر في السلوك الاجتماعي للفرد حيث تتفوق على عنصري الصراحة والوضوح في إبداء الرأي.

تتعلق الزاوية الثانية بديناميكية هذه القيم، حيث تتغير أشكال تجليها تلك بتأثير مجموعة من العوامل، مثل التغير في الثقافة السائدة كانعكاس للتغير في المعارف المتاحة، أو بسبب الاحتكاك مع الثقافات الأخرى، أو بتبدل نمط الحياة كنتاج لتغيرات في في سبل كسب العيش، وما إلى ذلك.

أما الزاوية الثالثة التي يمكن من خلالها النظر للاختلاف في فهم وممارسة هذه القيم فتتعلق بدرجة الإلتزام بها. وفي هذا نقول أنه يوجد مقياس، افتراضي،

متدرج ذو طرفين يعكس مدى تقيد أفراد المجتمع بقبول وتَمَـثُّل كل عنصر من عناصر منظومة الأخلاق والسلوك التي يتبناها المجتمع. يكون أحد طرفي هذا المقياس موغل في التحفظ، يمثل الحد الأعلى من الإلتزام، والآخر غارق في التحرر، يمثل الحد الأدنى من الإلتزام؛ بيد أن السيادة تتحقق عادة للدرجات المتوسطة، وهو مايمكن أن نسميه السلوك المقبول اجتماعياً. فالصدق مثلاً يتدرج من ذلك المستوى الرفيع الذي يختص به الأنبياء والأولياء ومن استطاع إلى ذلك سبيلاً من الناس، إلى ذلك المستوى الذي يفقد فيه بعض الناس تلك الصفة تماماً. بيد أن الجوهري في الأمر، أن الغالبية تتحلى بدرجة كبيرة من الصدق مختلطة بدرجة أقل من نقيضه، وهذا هو الوضع الطبيعي الذي لا يخل بتماسك المجتمع باعتبار أن الطرف الاعلى مثالي وصعب على مجمل المجتمع بلوغه، وأن الطرف الثاني مدمر لا يمكن للمجتمع قبوله.

وما ينطبق على الصدق ينطبق على الحشمة الجسدية، ونعنى بها هنا، ذلك القدر الذي يغطيه الملبس من الجسد الآدمي. فطالما هناك حداً معقولا من تغطية الجسد متفقاً عليه بين الناس سيظل ذلك المجتمع محتشماً وفي ذات الوقت محافظا على تماسكه وقدرته على البقاء والنمو، إذ إن الإفراط فيها يؤدي لإنغلاق ذلك المجتمع والحكم عليه بالبقاء في أسر الظلام، والتفريط فيها يؤدي إلى تحول ذلك المجتمع إلى مسخ مشوه وإلى إضمحلاله وربما زواله في النهاية. يبقى أن نقول أن هذا القدر المتفق عليه، هو أيضاً عرضة للتغير وفقاً للتغيرات التي تنشأ على مستوى المجتمع وثقافته. لتبيان طبيعية التحولات المتعلقة بمظهر الإنسان والسرعة التي تتم فيها، يحضرني دائماً مثال العادة السودانية الخاصة بوشم وجه المرأة "الشلوخ"، التي كانت عادة يمارسها كل الناس تقريباً باعتبارها تضيف قيمة جمالية للمرأة، أما الآن فإنها تمثل تشويهاً مرفوضاً

ومداناً من هذا المجتمع نفسه. تم هذا التغير في وقت ليس بالطويل بمقاييس التاريخ نتيجة للتغيرات التي تمت في ثقافة المجتمع والتي يبني عليها رؤيته للجمال والقبح.

فالمفهوم السائد لدى مجتمعاتنا بأن العفة تتحقق بتغطية كامل جسد المرأة وعزلها عن المجتمع غير صحيح، ذلك أن قرارات الفرد السلوكية تنبع من عقله الذي يتحكم فيها سلباً وإيجاباً، أما العنصر الخارجي فدوره لايتعد دور المساعد والمحفز. من هنا يمكن لنا أن نفهم أن حشمة الزي مسألة نسبية، وبالتالي دورها في العلاقة الجسدية بين المرأة والرجل ليست حاسمة، وهي العلاقة التي يتخوف الناس من ابتذالها بسبب عدم الإلتزام بالحشمة بالشكل الذي ينادي به السلفيون. فبعض المجتمعات المحلية في أفريقيا مثلاً عرفت الملابس حديثاً، إلا أن العلاقة بين الجنسين كانت مقننة اجتماعياً وتوجد أسس وقواعد محددة لقيامها. وهو أمر يمكننا ملاحظته بسهولة أيضاً في مختلف دول العالم التي بها سياحة شواطئ، حيث يختلط الجنسان بالحد الأدنى من الملابس، ونعني هنا ملابس السباحة، بدون أن يسبب ذلك أي خلل في المعادلات التي يقوم عليها ذلك المجتمع. وحتى في بعض المجتمعات العربية، كإمارة دبي مثلاً، فإنه من الصعب تصور أن الاستخدام الواسع للملابس التي تكشف عن قدر كبير من أجساد النساء بها في فصل الصيف بمكن أن يكون مصدراً للفتنة والإغواء للرجال بشكل يؤدي للرزيلة، بنفس القدر الذي يصعب فيه أيضاً تصور أن هذا القدر الواسع للغاية من تغطية النساء لأجسادهن، كما هو الحال في السعودية مثلاً، يجلب العفة المطلقة للمجتمع.

لذلك فإنه وعلى الرغم من عدم تمكننا من الحصول على بيانات إحصائية عن الانفلاتات الأخلاقية في دبي (كنموذج للتحلل من الإلتزام بالمظهر المحتشم

حسب التعريف الإسلامي السلفي المعاصر) إلا أننا نشك كثيراً بأنها ستزيد عن المعدل الذي سجلته هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسعودية (كنموذج للإلتزام الشديد بالمظهر المحتشم حسب التعريف الإسلامي السلفي المعاصر أيضاً) خلال عام واحد فقط والبالغ 59 الف واقعة أخلاقية منها 34,826 إعتداء على الأعراض و 24,504 "مخالفة أخلاقية"، علماً بان عدد الوقوعات المتعلقة بشراب المسكرات والمخدرات المسجلة لدى الهيئة لم تتعد 1,723 حادثة[7]. هذه الأرقام تجعل من العسير بمكان عزو تلك الجرائم الأخلاقية لملابس المرأة، خاصة إذا وضعنا في الإعتبار مدى الإلتزام شبه المطلق في السعودية باللبس "الإسلامي" في أشد صوره تطرفاً. وفي الغالب، فإن هذه الأرقام المفصح عنها رسمياً تعبر عن جزء يسير للغاية من الحقيقة نسبة لطبيعة المجتمع السعودي المحافظة التي تغطي على كثير من تلك الجرائم والوقائع وتبقيها خارج دوائر الرصد والإحصاء نتيجة للمخاوف الاجتماعية والنفسية المحيطة بها. وفي الواقع تشير معظم البحوث الاجتماعية الحديثة المسنودة بإحصاءات ذات مصداقية عالية، إلى أن نسب التحرش الجنسي تزيد طردياً مع تنامي ظاهرة الحجاب! فقد أشار تقرير ورد بموقع العربية.نت بتاريخ 2014/9/24[8] إلى تزايد غير مسبوق، أسمته بالإجتياح، لظاهرة التحرش بالمحجبات بالشارع المغربي لدرجة صرحت فيه إحدى الطالبات المحجبات بأن "المحجبة أصبحت أكثر عرضة للتحرش، وتغري الرجل المغربي أكثر من المتبرجة"، كاشفة أنها أصبحت قلقة على أمنها

---

[7] العربية.نت 2008/11/8 نقلاً عن تقرير منشور بصحيفة الوطن السعودية بتاريخ 2008/11/4 أعلن فيه الرئيس العام للهيئة الشيخ ابراهيم عبدالله الغيث هذه الأرقام، خلال محاضرة نظمتها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

[8] http://www.alarabiya.net/articles/2012/09/24/239967.html

الشخصي مخافة أن يتحول التلميح والتعريض إلى تحرش جنسي. كما أضافت الطالبة بأن: "أشكال التحرش بالمحجبات تتنوع ما بين التحرش اللفظي من خلال المعاكسات الجارحة التي تتغزل في جسد الأنثى سواء في الحرم الجامعي أو الشارع، ثم يأتي اللمس والاحتكاك في وسائل المواصلات العامة". وفقاً لذات التقرير، عَزَت كريمة الودغيري، الباحثة في علم الاجتماع، انتشار هذا النوع من التحرشات في صفوف المحجبات إلى ازدياد القيود الدينية الناجمة عن انتشار المظاهر الدينية كإطلاق اللحى والحجاب والنقاب أو ما يصطلح عليه "اللباس الأفغاني" بالشارع المغربي. وأضافت الودغيري: "القيود الدينية تخلق نوعاً من الهياج لدى الشباب يتنوع ما بين الكبت والتزمت والانفصال التام، مشيرة إلى أن منع الاختلاط بين النساء والرجال عند بعض المتزمتين يولد هذا الشعور ويتحول من خلاله "المتدين المقيد" إلى متحرش لا يفرق بين محجبة وغيرها، الأهم عنده إرضاء رغباته حتى لو بالتلميح، على حد تعبيرها". وفي تقرير شبيه عن مصر، حيث يتسيد لبس الحجاب للنساء الشارع المصري، أورد موقع قناة الحرة بتاريخ 2012/9/17[9] على لسان إيناس إبراهيم رئيسة مجلس إدارة مؤسسة "باحثة البادية" المعنية بالمرأة والشباب أن لدى مؤسستها، التي أطلقت مع عدد من المنظمات حملة "واجه التحرش" في الرابع من سبتمبر 2012 وتستمر ثلاث سنوات، "أرقام مخيفة، لدينا إحصائيات تشير إلى أن 40 في المئة من السيدات في مصر وعندنا إحصائيات أخرى تشير إلى أن 80 في المئة من الشابات يتعرضن للتحرش". وقد كشفت دراسة أعدها المركز المصري لحقوق المرأة عام

[9] http://www.alhurra.com/content/egypt-how-to-prevent-sexual-harassement-phenomenon/211854.html

2008 بعنوان "غيوم في سماء مصر" أن 83 في المئة من المصريات تعرضن بالفعل للتحرش الجنسي بأشكاله المختلفة.

ربما يساعدنا أكثر في إجلاء حقيقة ضعف درجة الإرتباط بين الحشمة والعفة، والملبس والرزيلة، أن رقصة العروس السودانية، التي تبرز فيها العروس جمال جسدها عبر كشف مساحات واسعة منه للحضور؛ كانت شيئاً معتاداً للغاية، وحتى وقت قريب، لدرجة أن يشك الإنسان في وجود شخص تعد الأربعين من عمره الآن لم تمارس والدته ذلك النوع من الرقص أمام جمع غفير رجالاً ونساءاً بدون أن يكون ذلك مدعاة لحرج، أو تجريح لأخلاق أي من الحضور بما فيهم العروس نفسها. على ضؤ كل تلك الحقائق يجب أن نبحث عن أسباب الرزيلة ومتطلبات العفة والخلق القويم في إطار آخر بدون هذا التركيز المخل على الملبس والجسد.

لقد أوصل الإنقياد الأعمى والخضوع لسلطة التقليد بفعل الأسباب والعوامل التي ذكرناها آنفاً، المجتمع العربي الإسلامي لإطلاق صفة "متبرجة" بكل سهولة على الأنثى التي تظهر شعرها أو جزء منه، على الرغم من أن الشعر نفسه لا يمثل دوراً ذا قيمة من الناحية النظرية والعملية في عملية الإغواء التي عادة ما تكون الهدف الأساسي لعملية "التبرج". مع ملاحظة أن نفس المجتمع يتفادى إطلاق ذات الصفة على الرجل الذي يخالف المألوف من الملبس كإرتداء قميص أو جلباب نصف كم، أو بنطال متوسط الطول، إلخ، مما يؤكد أن الأمر ليس متعلقاً باللبس أكثر من كونه مفهوماً اجتماعياً مستمد من تلك النظرة التجريمية للمرأة.

لقد حاولنا في الفقرات السابقة توضيح الإطار النظري للتعامل مع موضوع الملبس بشكل عام من زاوية العقل، وأكدنا من خلال الإحصائيات المختلفة، أن

منبع الجُنَح والجرائم الجنسية ليس هو لبس المرأة، وإنما هو نتاج لحالة الكبت الناتجة عن الفصل المتعمد بين مجتمع الرجال والنساء الذي تسبب فيه الفقه السلفي نفسه. بل لقد رأينا كيف أن المغالاة في ضرب ما يسمى بالحجاب، في غياب المناخ الاجتماعي الصحي، أصبح عاملاً رئيسياً في زيادة معدلات الفسوق الأخلاقي.

وحتى تكتمل الصورة من الناحية العقلية المنطقية لدحض دعوى المطالبين "بالحجاب"، نرى أن ما كتبه الأستاذ هشام سمير دهشان في هذا الشأن بمقالته "الحجاب المزعوم" المنشورة بموقع مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي بتاريخ 2007/3/24، يقدم حججاً إيجابية رائعة للغاية؛ وها أنذا أورد بعض النصوص المطولة من مقالته تلك مع بعض التصرف بغرض خلق السلاسة المطلوبة مع مادتنا هذه.

"هناك شبه إجماع عند رجال الدين المسلمين بان غطاء الرأس (الحجاب) فريضة إسلامية، وإجماعهم هذا يرجع إلى زعمهم أن هذا الغطاء حجاب، فرضه الله سبحانه تعالى على المرأة المسلمة من أجل حجب زينتها وجمالها عن عيون الناس، ومن أجل حمايتها من الذئاب البشرية المتربصة بها."

"بكل صراحة مطلقة أرى أن كلامهم هذا غريب جدا وغير مقبول فكريا وذلك لسببين، السبب الأول لأن جمال وزينة المرأة موجود بقدر كبير في وجهها وليس شعرها، السبب الثاني أن من ينظر للمرأة بغرض الإطلاع على زينتها أو مغازلتها، ينظر ويدقق في ملامح وجهها (عينها، شفاتها ،خدودها ،وجناتها) أما شعرها فليس مهماً بقدر أهمية الوجه الكبيرة جدا في مسألة زينتها وحسنها".

"بالنسبة لمواصفات المرأة الجميلة فهي تختلف من شخص لأخر، ومن مجتمع لأخر، ولكن سوف أتكلم عن العام منها. من مواصفات المرأة الجميلة

العيون الملونة (خضراء، زرقاء، عسلي)، البشرة الصافية، الشفاه الغليظة الممتلئة، العنق الصافي الطويل، الأنف الدقيق، صغر السن، الشعر الأشقر أو الأسود، القوام المتناسق. ومن خلال تعرفنا على مواصفات المرأة الجميلة في السابق، ندرك الحقيقة المعلومة لدي الجميع، وهي أن جمال وزينة المرأة موجود معظمه في وجهها، وأن المرأة تعرف بين الناس بأنها جميلة من خلال جمال وجهها، ومن خلال جمال وحسن الوجه يقع الرجال في حب النساء".

مصداقاً لهذه الأقوال حول مكامن جمال المرأة ومواطن حسنها، نجد الأغلبية العظمى من شعر الغزل الوصفي العربي يدور حول القوام والعيون وما إلى ذلك. وحتى تلك المرات التي يتم فيها التطرق لشَعْر المرأة، يتم تناوله من ضمن الوصف العام لتفاصيل الوجه أو الجسد، دلالة على قلّة أهميته، إذ ليس كالعيون مثلاً التي كتبت فيها لوحدها آلاف القصائد في الشعر العربي القديم والمعاصر.

يقول زهير بن ابي سلمى:

فأمّا ما فويق العقد منها ... فمن أدماء مرتعها الكلاء

وأمّا المقلتان فمن مهاة ... وللدرّ الملاحة والصفاء[10]

ويقول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلنا ثم لم يحينا قتلانا

[10] مال العرب القدماء إلى الوجه الصافي النقيّ في بياض مائل إلى السمرة، وعبّروا عن ذلك كلّه بكلمة "أدماء" والأدمة تعني السمرة، المها: البقر الوحشي. الدرّ: اللؤلؤ. الملاحة : حسن الوجه. والصفاء : الخالي من أي اثر أي الناعم.

ويقول ابن اللبّانة المداني الأندلسي (على الأرجح):

يا من حوى ورد الرياض بخده — وحكى قضيب الخيزران بقده

دع عنك ذا السيف الذي جردته — عيناك أمضي من مضارب حده

كل السيوف قواطع إن جردت — وحسام لحظك قاطع في غمده

إن شئت تقتلني فأنت محكم — من ذا يطالب سيدا في عبده

كما يقول الشاعر المعاصر مصطفى جمال الدين:

سيدتي ماذا أرى ❖❖ عريش كرمٍ أم مقل؟

أم زورقان سابحان ❖❖ في غدير من عسل

طافا بنا فصفق ❖❖ الحب وعربد الغزل

وجمرتان تسرجان ❖❖ الليل والبدر أفل

أم وجنتاك الغضتان ❖❖ احمرّ فيهما الخجل

نواصل مع الأستاذ هشام سمير دهشان: "ليس ما يميز وجه المرأة عن شعرها أن الوجه يوجد به القدر الأكبر من جمال المرأة فقط ، فبجانب هذا للوجه مميزات أخرى مهمة، وهى أن الوجه شيء حي قادر على التعبير فالوجه به نظرات المرأة التي تعبر بها عما بداخلها وما تريد قوله، وتكون نظرات حب وإعجاب أو نظرات رفض واستياء، وكذلك يوجد بوجه المرأة ابتسامتها الصافية التي تعبر بها عن ارتياحها و رضاها عن حبيبها، ويوجد بوجه المرأة أيضا ضحكتها التي تهز الأرض معها والتي تخطف بها قلوب العاشقين...

"فإذا كان هذا حال وجه المرأة، القدرة على التعبير والحيوية والحياة يأتي على النقيض تماما شعرها، فشعر المرأة مجرد شكل صامت يحتوى على قدر

ضئيل من الزينة مقارنة بقدر الزينة الموجودة في الوجه، فشعر المرأة مجرد صورة صامتة غير قادرة على التعبير عكس الوجه تماما...

"وأخيرا وليس أخر المرأة ليست مجرد صورة جميلة فقط ينظر الرجل إليها ويستمتع بالنظر إليها فبجانب جمال الصورة هناك أشياء أخرى مهمة جدا جدا في مسألة جمال المرأة وإعجاب الرجال بها مثل أنوثتها، ومستوي ذكائها، ومقدار ثقافتها، ومستوى التعليم والمعرفة لديها، ومدى تقبل الناس لها، فكثير ما نجد امرأة جميلة الشكل والصورة ولكن بسبب تدنى أنوثتها أو بسبب خشونتها في التعامل مع الغير لا تكون محل اهتمام الرجال، بعكس امرأة أخرى تكون متوسطة الجمال ولكن بفضل أنوثتها وأناقتها تكون محل إعجاب واهتمام الرجال...

"التجربة والواقع اثبتا أن هذا الغطاء المزعوم دون أي جدوى أو فائدة تذكر في مسألة حجب زينة المرأة، أو حمايتها من عيون الناس أو أي مضايقات تتعرض لها من أي نوع، فهو لم يحجب زينتها ولم يحميها من عيون الناس، والدليل على ذلك عشرات المعاكسات التي تتعرض لها الفتاة المحجبة يوميا في الشارع، وتكون هذه المعاكسات بكلمات مدح وثناء على قوامها، وعلى جمال عينها، وعلى رقتها وأناقتها، وأشياء كثيرة من هذا القبيل من مميزات المرأة الجميلة التي لها علاقة بشكل مباشرة بجمال وجهها...

"لذلك نسأل رجال الدين وكل من يزعم أن غطاء الرأس يحجب زينة المرأة ونقول لهم ما هي جدوى وفائدة هذا الغطاء أن لم يستطع حجب زينة المرأة وكذلك لم يستطع حمايتها؟ وهل من الممكن أن يفرض الله فريضة ثبت أنها دون أي جدوى أو فائدة تذكر؟ ولماذا التمسك بقطعة من القماش ثبت أنها دون أي جدوى أو فائدة تذكر بالنسبة للقيام بالغرض الذي وجدت من أجله وهو حجب زينة المرأة، وأيضا ثبت أن وجودها مثل عدمها؟". إنتهى.

مما يؤكد دقة تعبير كاتب النصوص أعلاه، وقوة منطقه وحجته في أن الوجه هو منبع الجمال والفتنة وليس الشعر، رفع إسلاميو السودان لشعار "الحسن أسفر بالحجاب" الذي كان مستخدماً في اللافتات الدعائية بكثافة أيام هوسهم الأولى في تسعينات القرن الماضي والذي يرفقون معه صورة إمرأة "محجبة" فائقة الجمال، وأظنها النائبة التركية مروة قاوجي، بغرض ترغيب النساء في "الحجاب". وهو موقف يعتبر مخالفة واضحة لفلسفة الحجاب من الزاوية السلفية، تلك التي تستهدف من الناحية النظرية إخفاء هذا الجمال، وليس إسفاره، حتى لايفتح باباً للشيطان، مما يدل على إرتباك عظيم لا يمكن تفسيره إلا بعزو الأمر كله للتهافت السياسي الذي يستخدم الدين كوسيلة لتحقيق مراميه!! وعلاقة إسفار الجمال عبر "الحجاب" ليست جديدة فقد سبقهم الشاعر القديم حينما قال:

قل للمليحة بالخمار الأسود   ماذا فعلتِ بناسكٍ متعبد

لا عجب إذا علمنا بأن هذه الإشادة بالخمار إنما كانت في معرض الترويج لبيع تلك الأخمرة التي كسدت عند تاجرها، فاستغاث التاجر بالشاعر الفحل لترويج بضاعته، تماماً مثلما إستنجد السياسي بالمصور البارع لتسويق فكرته في المثال الأول!

وجوبية الحجاب - المرجعية الدينية

إن الإحتجاج بالنصوص في المسائل المتعلقة بغير مايختص بالعقيدة والعبادات، لا يجب أن يشكل في نظرنا معياراً قاطعاً من الأساس، حيث إن الكثير من النصوص الواردة في هذا الإطار ترتبط بشروط وظروف الزمان والمكان الذي نزلت فيه.

على الرغم من أننا سنتناول أهلية أسس وآليات الفقه التقليدية والتي من أهمها الاحتجاج بالنص بدون النظر في أسباب نزوله أو سياقه التاريخي، في كتابنا "فتح العقل المسلم"[11]؛ إلا أننا نرى، ولفائدة النقاش، أن نتطرق لواحد فقط من دواعي رفضنا لتلك الحجية المطلقة للنصوص، وهي إبطال ذلك الفقه بنفسه لبعضها نتيجة لتخطي الزمان لها. والأمثلة كثيرة، فلماذا لاينهى السلفيون الناس، وأنفسهم إبتداءاً، عن إستعمال الأدوية والتماس العافية في

---

[11] امين عمر سيد أحمد, فتح العقل المسلم- جدل الشريعة والحياة (الخرطوم, دار عزة للنشر والتوزيع, 2015).

المشايخ، ويأمرونهم بالتداوي بالحبة السوداء والحجامة والرقية الشرعية باعتبار أن هناك نصوص صريحة تنادي بذلك، كحديث الحبة السوداء الذي أورده الإمام البخاري: "إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام"؟ ما الذي يمنعهم من مطالبة الدولة بتوزيع غنائم الحرب على محاربيها امتثالاً لما جاء بالقرآن والسنة، بدلاً عن ضمها لممتلكاتها كما هو الحال الآن؟ لماذا يقبلون من الدولة أن توقع على المواثيق الدولية الخاصة بتحريم الاسترقاق المشروع دينياً وفقاً لنصوص محكمة، وتحرم بالتالي ما أباحه الله، علماً بأن القرآن الكريم نفسه يمنع تحريم ما أحل الله: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"[12] ؟ ما الذي جعل بعض النصوص للإطلاع وأخرى للإتباع؟

على كل حال، وحتى نرد حجج أولئك المنادين بالحجاب، سنحاول في هذا الجزء من الدراسة مناقشة أمره من الناحية الفقهية الصرفة وباستخدام نفس مناهج وآليات الفقه التقليدي، حيث سنعمل من خلال ذلك على إثبات أن لا أصل ديني لما يعرف بالحجاب الإسلامي بشكله المطروح حالياً، وأن الأمر لا يعدو أن يكون رأي أفراد عاديين أتاحت لهم ظروف عصرهم فهم معين للنص الديني ليس ملزماً بأي حال من الأحوال للآخرين. لقد صنفنا الأدلة التي يستند عليها الفهم التقليدي "للحجاب الإسلامي" و يمكن أن يشتم منها وجوبه، إلى أدلة مستقاة من القرآن الكريم، وأخرى من السنة النبوية، وثالثة غير مباشرة يمكن استنباطها تعسفاً من النص الديني. سنأخذ كل واحد من هذه الأدلة على حِدة ونقيم الدليل على أنه لا يشير لهذا الأمر.

---

[12] سورة المائدة – آية رقم (87).

الأدلة المستقاة من القرآن الكريم

في الواقع لا توجد في المصدر الإسلامي الأساسي، القرآن، غير ثلاثة نصوص يمكن أن يستند عليها الداعون للحجاب كأدلة مباشرة، حيث تأتي على الوجه التالي:

سورة الأحزاب – آية 53

"يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما"[13].

[13] جاء في تفسير الطبري للآية – قال: حدثنا سعيد، عن قتادة (وَإِذَا سألتموهنّ متَاعا فاسأَلُوهن من وراء حجاب) قال: بلغنا أنهن أمرن بالحجاب عند ذلك. وقوله (إِن ذلكم كَان يؤذي النبِي) يقول: إن دخولكم بيوت النبي من غير أن يؤذن لكم وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له كان يؤذي النبي فيستحي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن مع كراهيته لذلك منكم (والله لا يستَحيي من الْحق) أن يتبين لكم، وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياء منكم.(وإِذا سأَلْتموهن متَاعا فاسأَلُوهن من وراء) يقول: وإذا سألتم أزواج رسول الله (ص) ونساء المؤمنين [لاحظ أن النص لم يتطرق لنساء المؤمنين وإنما زج بهن الطبري زجاً – الكاتب] اللواتي لسن لكم بأزواج متاعا (فَاسأَلُوهن من وراء حجَاب) يقول: من وراء ستر

إنه وبأقل قدر من التمعن في كلمات هذه الاية وسياقها نصل لحقيقتين واضحتين لا يمكن لعقل سوي منزه عن الغرض إلا الوصول إليهما بكل بساطة:

- **الحجاب المشار إليه في الآية لا يقصد به قطعة من القماش يغطى بها شعر المرأة وإنما يقصد به وضع ساتر مادي، كحائط أو ما إليه، ليعزل نساء الرسول (ص) عن الناس ويتيح للناس التعامل معهن من خلفه، أي الستار، إذا لزمت الحاجة لذلك. ومن سياق الآية وبالرجوع لسبب نزولها يتضح أن المقام أصلاً لم يكن مقام حديث عن الملبس وإنما كان مقام وضع شروط تحكم آداب تعامل الناس مع بيت الرسول (ص) ونسائه، وقد كان السبب المباشر لذلك هو سلوك بعض الصحابة عندما أولم رسول (ص) لهم في بيته عند عرسه من السيدة زينب بنت جحش وأطالوا الجلوس والأنس. وإن**

بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن (ذلكم أَطْهر لقلُوبِكم وقُلُوبهِن) يقول تعالى ذكره: سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تعرض في صدور الرجال من أمر النساء، وفي صدور النساء من أمر الرجال، وأحرى من أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل.

وقد قيل: إن سبب أمر الله النساء بالحجاب، إنما كان من أجل أن رجلا كان يأكل مع رسول الله (ص) وعائشة معهما، فأصابت يدها يد الرجل، فكره ذلك رسول الله (ص).

* ذكر من قال ذلك: حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، عن ليث، عن مجاهد، أن رسول الله (ص) كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، فكره ذلك رسول الله (ص)؛ فنزلت آية الحجاب.

* ذكر من قال ذلك: حدثنا أبو كريب ويعقوب، قالا ثنا هشيم، قال: ثنا حميد الطويل، عن أنس، قال: قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ قال: فنزلت آية الحجاب.

كان الأمر مقصوداً به الملبس لكانت أفصحت عنه الآية بوضوح بدون ترك الأمر للتخمين: "رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور"[14].

- **يؤكد هذا ما روي بصحيح الحديث، أنه عندما اسرت السيدة صفية وآلت الى الرسول (ص)، عرف المسلمون انه اتخذها زوجة عندما ضرب عليها الحجاب، كما يؤكده أن القرآن الكريم استخدم ذات العبارة للدلالة على الساتر والحاجب في مواضع كثيرة منه:**

"وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون"[15].

"وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا"[16].

"واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا"[17].

"وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون"[18].

---

[14] سورة الطلاق – آية رقم (11).

[15] سورة الأعراف – آية رقم (46).

[16] سورة الإسراء – آية رقم (45).

[17] سورة مريم – آية رقم (17).

[18] سورة فصلت – آية رقم (5).

"وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم"[19].

- الخطاب موجه إلى، ومقصود به نساء الرسول (ص) وحدهن، ولا يمكن ولا يصح تعميمه على مطلق النساء بدليل واضح لا لبس فيه. فبداية الآية تتحدث عن بيت النبي تحديداً: "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم"، وتنتهي بأمر صارم يخص نساء النبي وحدهن أيضاً: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا". لم تكن هذه الآية هي الوحيدة في السورة المشار إليها التي تلزم نساء النبي بما يخالف كافة النساء، مما يصبح معه الاعتماد على مبدأ العبرة بعموم اللفظ غير ذي نفع، فقد أفاضت الآيات التي سبقتها بما يقطع الشك باليقين حيث أوضحت: "يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما. يا نساء النبي **لستن كأحد من النساء** إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا "[20]. لو كان الأمر يخص النساء في مجموعهن لكن منطقياً أن يجئ الأمر على منوال الآية

[19] سورة الشورى – آية رقم (51).

[20] سورة الأحزاب – آية رقم (30 .. 33).

اللاحقة في نفس السورة والتي تقول "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين .."[21].

سورة النور – آية 31

"وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون"

هذه الآية كسابقتها لا تؤسس حكماً بإلزامية "الحجاب الإسلامي" الذي أقام الدنيا ولم يقعدها حتى الآن بل أننا نزعم أنها لاتشير إليه، وذلك للآتي:

- **غض البصر وحفظ الفروج هو أمر مطلوب من النساء والرجال ويدخل في باب آداب الإسلام وليس له علاقة مباشرة بشكل اللبس.**
- **ضرب الخمر على الجيوب المقصود به تغطية جزء حساس من صدر المرأة كان مكشوفاً في الجاهلية وذلك عبر إسدال الخمار الذي كان يلبس لتغطية رأس المرأة، إسداله على الصدر بدلاً عن عن الظهر كما كان متبعاً في وقتها. فالآية لم تفرض الخمار، تماماً مثلما لم تفرض آية أخرى لبس العمائم التي كانت تغطي رؤوس الرجال في ذلك الزمان. فالواضح لغة وسياقاً أن الآية تعرضت لتغطية الجيوب وليس لبس الخمار، فهي لم تتطرق**

---

[21] سورة الأحزاب – آية رقم (59).

لشعر المرأة من الأساس. الجدير بالذكر أن الآية لم تحدد طول وعرض هذا الخمار أو إذا ماكان مطلوباً منه تغطية الرأس أو جزء منه، كما لم تشر إلى ما إذا كان يجب أن يكون شفافاً أو سميكا، وإنما أشارت إليه فقط كوسيلة لتغطية الجيوب (الصدر). تجدر الإشارة أيضاً، إلى أن كلمتي عمامة وخمار تشيران لمعنى واحد وهو غطاء الرأس الذي يستعمل للحماية من اشعة الشمس والعوامل الطبيعية الأخرى، ففي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله (ص) مسح على الخفين والخمار (ويعني العمامة)، مما ينفي عن الخمار أي صبغة دينية يحاول البعض إلصاقها به وإلا كانت العمامة واجباً دينياً بإعتبار أن هنالك حديثاً صحيحاً أشار إليها ![22].

- تعرضت الاية لزينة المرأة ولم تتعرض لجسد المرأة وطلبت منهن عدم ضرب أرجلهن للفت النظر للزينة المخفية التي لايجب على الآخرين الإطلاع عليها، أي تلك التي تلفت النظر لمكامن الفتنة بها كما يفهم من سياق الآية. فالآية إذاً، نصاً ومعنىً، تطلب من المؤمنات الإحتشام والبعد عن تعمد الإثارة والإغواء ولم تضع قالباً مرسوماً لما ينبغي أن يكون عليه لبس المرأة المسلمة، إلا أن الفقه التقليدي ولأسباب سبق الإشارة إليها في بداية هذا

[22] صحيح مسلم – باب المسح على الناصية والعمامة – حديث رقم (275): "حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن العلاء قالا حدثنا أبو معاوية ح وحدثنا إسحاق أخبرنا عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش عن الحكم عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن بلال: أن رسول الله (ص) مسح على الخفين والخمار وفي حديث عيسى حدثني الحكم حدثني بلال وحدثنيه سويد بن سعيد حدثنا علي (يعني ابن مسهر) عن الأعمش بهذا الإسناد" يعني بالخمار العمامة لأنها تخمر الرأس أي تغطيه.

الكتاب، ظل يدور ويلف ويبحث عن أي إشارة هنا أو هناك من أقوال وآراء السلف لإنطاق الآية بغير ما نطقت به. ليس غريباً أن يكرِّس الفقه السلفي كل جهد ممكن لأن تعني هذه الآية شيئاً آخر غير ما نطقت به، فهو في نهاية الأمر نتاج طبيعي لأناس من لحم ودم يصيبون ويخطئون، إلا أن لنا حقاً لا لبس فيه في التحفظ على استنتاجات هذا الفقه ومسلّماته التي كانت نتاجاً لمستوى تطور عصره وموروثات مجتمعاته التي يغلب عليها طابع البداوة وغلبة الآراء المناهضة للمرأة. إذ أليس هو ذات المجتمع الذي كان آباؤهم وأجدادهم يمارسون فيه وأد البنات؟!

- عندما لم يساعد النص المفسرين والفقهاء التقليديين في الوصول لمقصدهم لجأوا لتأويل عبارة الزينة لتقود للمعنى الذي لم يرده النص القرآني مما أدى لاختلاف عظيم فيما بينهم. فمنهم من قال إن الزينة الظاهرة التي يمكن إبداءها للغير، أي تلك المسموح بها، والتي أشارت إليها الآية، هي الثياب فقط وكل أنواع الزينة الأخرى تندرج في تلك المخفية التي لايجوز إطلاع الآخرين عليها كالخلخال والسوارين والقرطين والقلائد. ومنهم من وضع الكحل والسوارين والخاتم في باب الزينة الظاهرة التي يجوز للآخرين الإطلاع عليها في منافاة كاملة للرأي الأول. بل إن منهم من جعل الزينة الظاهرة أجزاء من جسد المرأة نفسه وهما الكفان والوجه استناداً على فهمهم لحديث سنناقشه لاحقاً.
- لقد فات على الفقهاء أن القرآن لم يبين ما هي الزينة أصلا سواءاً كانت مخفية أم ظاهرة مثلما بيَّن بشكل واضح زينة السماء، وسماها المصابيح، وأفصح عن زينة الحياة الدنيا، وسماها المال والبنون. إن هذا السكوت، رغماً

عن أن زينة المرأة محل تكليف، يعزز من رأينا في أن الخالق ترك هذا الأمر عمداً لتقدير عباده للتقرير فيه وفقاً لظروف زمانهم ومكانهم.

- بالنظر المتمعن لنص الآية تبرز اشكالية لغوية تناولها بعمق الأستاذ غالب حسن الشبندر بمقالة تهز الأساس الذي استند عليه أصحاب استخدام آية الزينة في التدليل على وجوب "الحجاب". تتمثل هذه الإشكالية في الإختلاف البيِّن بين لفظي "الإبداء" و "الإظهار". فالإبداء لغة هو الإظهار الشديد وليس الإظهار العادي، على هذا الأساس يمكن أن يفهم الشطر من الآية: "ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن" باعتباره يسمح بإظهار الزينة لغير بعولتهن وغيرهم من المحارم بشرط عدم الغلو في إظهارها (أي عدم إبدائها لأن الإبداء خاص بالزوج ومن حددتهم الآية في ذلك الشطر)، والدليل على حديثنا هذا أن الشطر الأول من الاية "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها" يبيح إبداء ما ظهر. فكلمة إبداء لا تعني مطلقاً إظهار وإلا كان الشطر الأول من الآية مختلاً من الناحية اللغوية حيث يمكن قراءته في تلك الحالة "ولا يظهرن زينتهن إلا ما ظهر منها"[23] وهو أمر لا يمكن تصوره علي أي حال. بناء على ما سبق، يكون لدينا ما يلي:
  - أن (الإبداء) هو الظهور البيِّن وليس مجرد الظهور.
  - أن المسموح به في الآية الكريمة هو إبداء (ما ظهر) من الزينة، أي مزيد من إظهار (ما ظهر) من الزينة، فهناك بداية ظهور، ولكن هناك أيضا مزيدا من الإظهار. ولكن ماذا نستفيد من الإبداء هنا؟ ربما يفيد الابداء

[23] الأستاذ غالب حسن الشبندر "قراءة أخرى في آية زينة المرأة في القرآن" موقع إيلاف – يوليو 2007،

هنا المزيد من إظهار الظاهر بالالوان أو الزخارف أو بعض العلامات التي تزيد من ظهوره بشكل وأخر.

- يجوز إظهار المخفي من الزينة، لان الممنوع هو إبداء هذه الزينة المخفية وليس إظهارها.

- إن الفهم البسيط والواضح للآية بإعتبارها تدعو للتمسك بالعفاف والفضيلة عبر الإعتدال في الملبس والزينة يجنبنا كل تلك التناقضات التي قادنا إليها الفقه التقليدي في سعيه الحثيث للتضييق على المرأة. فإبداء الجمال أمر مشروع واستخدام الزينة لإبرازه شيئ طبيعي وهو أمر يؤكده صحيح الدين نفسه. وشاهدنا على ذلك الأحاديث الثلاثة الصحيحة التالية: الحديث الأول: "كتب عمر بن عبد الله بن الأرقم إلى عبد الله بن عتبة بخبره أن سبيعة بنت الحارث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدرا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب [أي تزينت لتلفت النظر – الكاتب] فدخل عليها أبو السنابل ابن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال لها ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله (ص) فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي"[24] ، نلاحظ أن أبو السنابل لم يعترض على مبدأ التجمل وإنما في توقيته كما نلاحظ أن الرسول (ص) لم يستهجن

[24] صحيح البخاري – باب فضل من شهد بدرا – حديث رقم (3770).

مسلكها المتمثل في التجمل للخطاب. الحديث الثاني: جاء في صحيح البخاري أيضاً: "عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أخاه الفضل كان رديفاً للنبي (ص)، في حجة الوداع فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي (ص)، يصرف وجه الفضل إلى الشق الأخر"[25]، نلاحظ، أيضاً أن الرسول (ص) لم يستهجن هذا الإبداء للحسن، الذي جعل الفضل يطيل النظر، ولكنه وجه بغض البصر. الحديث الثالث: جاء بصحيح البخاري: "عن سعد بن سعد أن امرأة جاءت رسول الله (ص) فقالت يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي فنظر إليها رسول الله (ص) فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست .. إلى آخر الحديث"[26]. والحديث يؤكد بوضوح أن الرسول (ص) كان يتأمل في وجهها. مع كل هذه الحقائق الواضحة لا يسع المرء إلا الاستغراب من هذا القدر الهائل من تعذيب الذات، وتغريبها عن الجمال، ذلك الذي يمارسه بعض المسلمين على أنفسهم بإصرار لا يعرف الكلل.

لقد عبر الشاعر العربي القديم خير تعبير عن طبيعة الملبس وأهمية أن يبرز جمال المرأة بدون إبتذال حينما أنشد القصيدة الخالدة عبر الزمان[27]:

قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

---

[25] صحيح البخاري - باب حج المرأة عن الرجل - حديث رقم (1756)

[26] صحيح البخاري - باب القراءة عن ظهر القلب - حديث رقم (4742)

[27] تنسب بعض الروايات هذه الأبيات لمسكين الدرامي وهو شاعر اشتهر بشعره في الغزل والهجاء، وبعضها ينسبها إلى شاعر اسمه ربيعة بن عامر.

فسلبت منه دينه ويقـينه وتركته ﷺ حيرة لا يهتدي

ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحـق دين محمد

فالأبيات الشعرية توضح بشكل لا لبس فيه، ان الخمار ليس له دور ﷺ تغطية وجه المرأة أو التأثير على جمالها، وإلا ما كان ﷺ مستطاع الشاعر أن يهيم بجمالٍ لا يراه، خاصة إذا علمنا أن الأبيات قيلت ﷺ مكان عام وهو السوق؛ حيث كان السبب الرئيسي للأبيات كما ورد بالروايات المختلفة تشجيع النساء لشراء الخمارات السوداء نسبة لكسادها حيث إن النساء أقبلن على الألوان الأخرى، اعتباراً منهن أنها أجمل من الأسود، مما هدد التاجر الذكي ﷺ ربحه.

من المرجح أن تلك الأبيات قيلت ﷺ القرن الثاني الهجري، أي قبل تدوين الحديث النبوي وقبل تأليف كتب التفسير، مما يؤكد بالفعل مدى التعسف الذي بلغه الفقهاء والمفسرين ﷺ الحط من شأن المرأة وتباريهم ﷺ التغليظ على ملبسها نتيجة اعتقاد كريه مفاده أن الأذى يكمن فيها هي بالذات!

سورة الأحزاب – آية 59

"يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما".

أجمعت كل كتب التفسير تقريباً على نزول هذه الآية بغرض تمييز الحرائر عن الإماء ﷺ مدينة الرسول (ص)، حيث كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء، وكانت

مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها . على ضؤ هذه الحقائق الواضحة طلبت الآية من نساء المدينة إدناء ملابسهن، وكن في ذلك الزمان يلبسن الجلابيب التي إختلف أيضاً المفسرون في تحديد معناها بدقة، طلبت منهن إدناءها أي زيادة مقدار تغطيتها للجسد، ليتجنبن تعرض الفساق لهن. لا نعتقد أن هذه الآية تقف دليلاً على وجوب ما اصطلح على تسميته بالحجاب الإسلامي وذلك للآتي:

- الآية نزلت لمعالجة قضية محددة ومعلومة، وفقاً لما جاء بكل كتب التفسير تقريباً، تتمثل في حماية الحرائر من المؤمنات من هجمات الفساق وذلك عبر الطلب منهن تغطية جزءاً أكبر من أجسادهن يسمح بالتفريق بينهن وبين الإماء، خاصة في الظلام. ولم تحدد الآية مقدار ذلك الجزء أو كيفية تغطيته، كما لم تتطرق الآية لموضوع تغطية الشعر. إن اختلاف الفقهاء في تعريف الجلباب وتحديد المقصود بالإدناء يؤكد أن أمر إقحام الآية في دعواهم "للحجاب" لا يعدو أن يكون أمراً بشرياً محضاً، أثرت فيه تقاليد عصرهم، ومدى المعارف المتاحة لديهم، وانغلاق تفكيرهم، نتيجة لمجموعة الأسباب التي تعرضنا لها في الأبواب السابقة.
- لايمكن تطبيق قاعدة "العبرة بعموم اللفظ" التي تحتج بها الأغلبية العظمى من الفقهاء في هذه الحالة، حيث إن التوجيه بالإدناء تم ربطه بسبب واضح وهو أن "يعرفن فلا يؤذين"، بما يعني جلياً أنه إذا كان متاحاً تحقق المعرفة والتمييز بغير إدناء الجلابيب لجاز ذلك. إنه مما يؤكد بوضوح خصوصية السبب في هذه الآية أن عمر بن الخطاب، كما ورد في

كتب التفسير، إذا رأى امة قد تشبهت بالحرائر، بمعنى أدنت ثوبها، ضربها بالدرة محافظة على التمييز المطلوب بين الإماء والحرائر. أننا نذهب أكثر من ذلك، ونقول إن حكمة الشارع من الأمر بالإدناء وهي أن "يعرفن فلا يؤذين" تتطلب العكس تماماً في بعض المجتمعات المعاصرة، خاصة للجاليات المسلمة في الغرب، حيث إن إرتداء "الحجاب" هو الذي يعرض صاحبته للأذى والضيق!

- **إنه مثلما لم تفرض آية "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" الخمار وإنما أشارت إليه بإعتباره الغطاء المعروف لشعر المرأة في ذلك الزمان (تماماً مثل لبس العمامة للرجل الذي كان سائداً في ذلك الزمان أيضاً)، لم تفرض هذه الآية الجلابيب بإعتبارها زياً واجباً للمرأة المسلمة كما يحاول البعض الإيحاء بذلك، بل كل ما طلبته هو أن تزيد المرأة المساحة المغطاة من جسدها تمييزاً لها عن الإماء كحماية لها من الفساق، وجاءت بذكر الجلباب باعتباره الرداء المعلوم في ذلك الزمان. إن تذرع من يريد إضفاء وجوب الخمار والجلباب كرداء للمرأة المسلمة بإعتبار وروده في القرآن، يشبه تماماً وضع من يريد أن يفرض الحج على الناس باستخدام الأرجل والجمال فقط، بدلاً عن الوسائل الأخرى كالطائرات والسفن والحافلات، استناداً على آية "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"[28]!**

---

[28] سورة الحج – آية رقم (27).

الأدلة المستقاة من السنة النبوية

بعد أن استعرضنا الآيات التي يتحجج بها المنادون بحجاب المرأة باعتبار أنه أمر رباني، نورد فيما يلي مجموعة من الأحاديث النبوية التي يستخدمها دعاته في دعم حججهم، ونبيّن هشاشة الإستناد عليها كأدلة على وجوبيته من الناحية الدينية:

الحديث الذي يفيد بوجوب تغطية الجسم عدا الوجه والكفين

الرواية الأولى - سنن أبي داؤد: عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد قال يعقوب ابن دريك عن عائشة رضي الله عنها : أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله (ص) وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله (ص) وقال "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا" وأشار إلى وجهه وكفيه.

الرواية الثانية - سنن البيهقي الكبرى: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنبأنا أحمد بن عبيد حدثنا أبو عمران الجوني حدثنا محمد بن رمح حدثنا ابن لهيعة عن عياض بن عبد الله أنه سمع إبراهيم بن عبيد بن رفاعة الأنصاري يخبر عن أبيه أظنه عن أسماء بنت عميس أنها قالت: دخل رسول الله (ص) على عائشة بنت أبي بكر وعندها أختها أسماء بنت أبي بكر وعليها ثياب شامية واسعة الأكمام فلما نظر إليها رسول الله (ص) قام فخرج فقالت لها عائشة رضي الله عنها تنحي فقد رأى رسول الله (ص) أمرا كرهه فتنحت فدخل رسول الله (ص) فسألته عائشة رضي الله عنها لم قام قال أولم تري إلى هيئتها أنه ليس للمرأة المسلمة أن يبدو منها إلا هذا وهذا وأخذ بكفيه فغطى

بهما ظهر كفيه حتى لم يبد من كفه إلا أصابعه ثم نصب كفيه على صدغيه حتى لم يبد إلا وجهه.

الرواية الثالثة - الطبري: قالت عائشة : دخلت على ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مزينة فدخل النبي (ص) فأعرض فقالت عائشة : يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية فقال : إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى.

بالنظر للثلاثة روايات المطروحة أعلاه نلاحظ التالي:

- **تعتبر هذه الأحاديث من أحاديث الآحاد الظنية ولا تدخل في مجموعة الأحاديث المتواترة أو المشهورة، و إنما هي للإستئناس والإسترشاد ولا يجب أن يبنى عليها حكماً شرعياً.**
- **الأحاديث من الأحاديث الضعيفة حيث لم يرد الأول في أي من كتب الحديث غير سنن أبي داود، وقد ضعّفه راويه نفسه بتأكيده أن الحديث مرسل حيث أن خالد بن دريك لم يدرك عائشة ولم يسمع عنها ذلك. وليس أدل من ضعفه أكثر من رأي مفتي السعودية عبد العزيز بن باز الذي ضعَفه من خمسة أوجه (في إتجاه دفاعه عن النقاب!) حيث قال:**
  - **الراوي عن عائشة خالد بن دريك لم يلق عائشة، فالحديث منقطع، والحديث المنقطع لا يُحتج به لضعفه.**
  - **ان في إسناده رجلاً يُقال له سعيد بن بشير وهو ضعيف لا يُحتج بروايته.**
  - **ان قتادة الذي روى عن خالد بالعنعنة وهو مدلس يروي عن المجاهيل ونحوهم ويُخفي ذلك، فإذا لم يصرح بالسماع صارت روايته ضعيفة.**

- ان الحديث ليس فيه التصريح أن هذا كان بعد الحجاب، فيحتمل أنه كان قبل الحجاب.
- ان أسماء هي زوج الزبير بن العوام، وهي أخت عائشة بنت الصديق وامرأة من خيرة النساء ديناً وعقلاً، فكيف يليق بها أن تدخل على النبي (ص) وهي إمرأة صالحة في ثياب رقاق مكشوفة الوجه والكفين وزيادة على ذلك بثياب رقيقة وهي التي تُرى عورتها منها فلا يُظن بأسماء أن تدخل على النبي (ص) بمثل هذه الحال في ثياب رقيقة ترى من ورائها عورتها فيعرض عنها النبي (ص) ويقول لها عليك أن تستري كل شيء إلاّ الوجه والكفين. معنى هذا أنها دخلت على النبي (ص) وهي كاشفة لأشياء أخرى من الرأس أو الصدر أو الساقين أو ماشابه ذلك، وهذا الوجه الخامس يظهر لمن تأمل المتن فيكون المتن بهذا المعنى منكراً لا يليق أن يقع من أسماء رضي الله عنها.

- الحديث الثاني إسناده ضعيف بشهادة المصدر المنقول عنه نفسه، كما هو الحال بالنسبة للحديث الأول الذي ضعّفه راويه، أما الثالث فقد أورده الطبري في سياق تفسيره لآية الزينة ولم يرد في كتب الحديث المعلومة. نلاحظ أيضاً أن هذا الحديث الأخير يناقض ما جاء بالروايتين الأولتين حيث حدد المسافة المسموح بكشفها في اليد حتى منتصف الذراع، وليس الكف كما في الروايتين الأولتين، إضافة للوجه.
- لقد اتفقت الروايات الثلاثة، بافتراض صحتها وهو أمر مشكوك فيه لأسباب ورد ذكر بعضها وسيرد ذكر البعض الآخر، في أمر مشترك وهو أن رأي الرسول (ص) جاء في موقف إحتجاج على زي لم يكن مقبولاً لديه فالرواية الأولى تتحدث عن "عليها ثياب رقاق"، والثانية عن " ثياب شامية واسعة

الأكمام"، والثالثة عن دخول ابنة أخ السيدة عائشة مزينة، فالراجح من هذا أن الأمر لم يكن يتعلق بطول الملبس أو قصره وإنما باحتجاج على إبراز مفاتن للجسد أكبر من الحد المعقول.

- امر آخر يشككنا في صحة الروايات، حيث إنه يستشف من السياق أن السيدة أسماء كما ورد بالروايتين الأولتين أو إبنة أخ السيدة عائشة كما جاء في الثالثة لا تعرفان "الزي الشرعي" وإلا لما خالفتاه. بل يبدو من الرواية الثانية أن السيدة عائشة نفسها لا تعلم ذلك بدليل أنها استغربت ضيق الرسول ولحقت به لتعرف سبب ضيقه، فكيف يستقيم عقلاً أن يجهل آل بيت الرسول (ص) هذا الأمر الهام؟
- طريقة التي إنفعل بها الرسول (ص) وفقاً للرواية أعلاه تفترض أن هناك مواصفات مسبقة للزي "الشرعي" تم مخالفتها، فأين إذاً هذا النص الذي يوضح هذا الزي الذي تم مخالفة مواصفاته؟ هل هي آيات "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن" و " قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن"؟ لكن هذه الآيات لم تتعرض للحدود الفاصلة بين المكشوف والمستور من البدن كما أسلفنا من قبل!
- بناءاً على ماورد أعلاه لا يمكن لنا أن ننظر إلى رد فعل النبي (ص) على زي السيدة أسماء، وإن صحت الرواية، إلا مثلما ننظر لحديث الرسول (ص) عندما رفض نكاح علي بن أبي طالب من إبنةً لبني هشام بن المغيرة حيث قال من على المنبر : "فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن

يطلق إبنتي وينكح إبنتهم"[29]، بإعتباره رد فعل إنساني نشأ بحكم الغيرة على بيت النبوة أكثر من أنه أمراً دينياً يمنع تعدد الزوجات.

- **واضعين في الإعتبار أن تدوين الحديث قد بدأ بعد مئتي عاماً تقريباً من وفاة الرسول (ص)، كيف نؤسس حكما بهذه الخطورة على أمر مشكوك فيه؟ بل حتى بافتراض صحته، وهو إحتمال مستحيل في تقديرنا، ما المانع من معاملته معاملة حديث إرضاع الكبير الذي عطل الفقهاء العمل به رغم أنه أكثر صحة، بما لا يقاس، من هذا الحديث؟ لماذا يكبل الفقهاء النساء بحديث مشكوك في صحته، ويوافقون على إطلاق سراح الأرقاء الثابتة عبوديتهم بنصوص قطعية لا تحتمل التأويل؟**
- **هنالك في الحديث النبوي ما هو أخطر من ذلك؛ مما يدعو ليس للتشكيك في صحة الرواية فحسب، بل وتأكيد أن ما يطلق عليه بالحجاب ليس له أساس؛ فقد أورد البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال: "كان الرجال والنساء يتوضؤون في زمان رسول الله (ص) جميعا"[30]. فضلاً عن أنه من البديهي أن الوضؤ يجعل من كشف ماهو أكبر من الوجه والكفين للمرأة شيئاً محتوماً، فقد زاد بن ماجة على الحديث السابق أن الوضوء كان يتم "من اناء واحد"، وأضاف عليه ابوداؤود قوله: "ندلي فيه أيدينا". بل زاد ابن ماجة على كل ذلك، تأكيداً على تأكيد، بايراده عن أم صبية الجهنية قولها: "ربما اختلفت يدي ويد رسول الله (ص) في**

---

[29] صحيح البخاري – باب ذب الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف – حديث رقم (4932)

[30] صحيح البخاري – باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة – حديث رقم (190)

الوضوء من إناء واحد"[31]، علماً بأن كل هذه الإضافات صحيحة وفقاً لقواعد علم الحديث.

حديث الكاسيات العاريات

روى مسلم عن أبي هريرة قال: "قال رسول اللّه (ص): صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"[32].

بالنظر لهذا الحديث، فيما يخص عبارة كاسيات عاريات، حيث لا ترتبط العبارات الأخرى بمسألة اللبس من الأساس، نلاحظ الآتي:

- **لم يشر الحديث كما هو واضح إلى زي بعينه، أو درجة تغطية معينة لجسد المرأة، كما لم يشر لشعر المرأة وهو "القضية المركزية" فيما يسمى بالحجاب.**
- **أورد مسلم في صحيحه أربعة تأويلات لعبارة كاسيات عاريات، نوجزها في الآتي مع ملاحظة أن الإثنين الأولين منها لا يشيران للعرى الجسدي أصلاً:**
    - **كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها.**
    - **كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهن والاعتناء بالطاعات.**
    - **تكشف شيئا من بدنها إظهارا لجمالها فهن كاسيات عاريات.**
    - **يلبسن رقاقا تصف ما تحتها كاسيات عاريات في المعنى.**

---

[31] سنن ابن ماجة – باب الرجل والمرأة يتوضآن من إناء واحد – حديث رقم (382).

[32] صحيح مسلم – باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات – حديث رقم (2128).

نلاحظ في التأويلين الأخيرين عدم دقتهما أو منطقيتهما، حيث أن كلمة عاري تشير عامة للتجرد من الملابس بشكل كامل وليس لمجرد إظهار جزء من البدن. كتأكيد لذلك، فنحن لا نصف الرجل لاعب كرة القدم بأنه عاري لمجرد أن زي كرة القدم يكشف عن جزء مقدر من جسده، و لانصف المرأة التي ترتدي الزي السوداني التقليدي الذي يكشف عن أجزاء من جسدها بأنها عارية، حيث أن كلمة "متبرجة" تعتبر أسوأ وصف يمكن أن يقدمه الفكر السلفي لحالتها هذه، فمن الواضح إذاً أن النظرة المتخلفة للمرأة التي سادت في تلك الفترة هي المسئولة عن هذا الخلل الكبير في التأويل.

- لقد أورد البخاري الحديث التالي الذي يؤكد، وعلى لسان الرسول (ص) أن عبارة "عاريات" إنما المقصود منها خفة الدين وليس التعري من الملبس: "عن ابن شهاب عن هند بنت الحارث الفراسية أن أم سلمة زوج النبي (ص) قالت: استيقظ رسول الله (ص) ليلة فزعا يقول: سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن من يوقظ صواحب الحجرات [يريد أزواجه لكي يصلين] رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" [33].
- يؤيد ما ذهبنا إليه، أن القرطبي في تناوله لهذا الحديث في سياق تفسيره لآية "والقواعد من النساء اللاتي لايرجون نكاحاً"، نحى لتأويل مشابه للتأويلين الأولين حيث رأى "أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى". وقد دعَم قوله هذا يالإستشهاد بقوله تعالى بسورة الأعراف: "ولباس التقوى ذلك خير"، وأيضاً بقول الشاعر:

[33] صحيح البخاري – باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه – حديث رقم (6658).

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

وخير لباس المـــرء طاعـــة ربـه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

كما أن العرب، وفقاً لما ورد بتفسير القرطبي، تكني عن الفضل والعفاف بالثياب كما قال شاعرهم: ثياب بني عوف طهارى نقية.

كما أسلفنا في مناقشتنا للأحاديث السابقة الخاصة بموضوع الحجاب، واضعين في الإعتبار أن تدوين الحديث قد بدأ بعد قرنين تقريباً من وفاة الرسول (ص)، كيف نؤسس أحكاماً مطلقة بهذه الخطورة، كفرض زي معين على كل النساء وفي كل الأزمان، على أمر مشكوك فيه؟ بل حتى بإفتراض صحته، ما الحكمة في عدم معاملته معاملة حديث إرضاع الكبير، كمثال، والذي عطل الفقهاء العمل به لعدم ملاءمته لواقعنا رغم أنه أكثر صحة ووضوحاً من هذا الحديث[34]؟

[34] صحيح مسلم – باب رضاعة الكبير – حديث رقم (26)

نصوص توحي بوجوبية الحجاب

ومقصود بها تلك النصوص التي لا تتطرق لمسألة الحجاب باعتباره هو اللبس "الشرعي" للمرأة مباشرة، لكن توحي بذلك من خلال سياقها. يمكننا تلخيص أهمها في الآتي:

أولاً:

" والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم"[35].

النظر المستقيم لهذه الآية، شكلاً ومضموناً، لايمكن غير أن يصدم الباحثين عن "حجاب" في ثناياها. فالآية لا تشير لزي بمواصفات معينة ينبغي للمرأة أن ترتديه سواءاً كانت صغيرة أو كبيرة في السن، وإنما تشير لإتاحة الفرصة للمرأة الكبيرة في السن التخفيف مما تلبس من ثياب بدون حرج شريطة أن يكون ذلك

---

[35] سورة النور – آية رقم (60).

بـدون إبتـذال (أي تـبرج)، وهـو أمـر، أي الإبتـذال، منهـى عنـه بوضـوح ـيـِّ كـل الأحوال.

لقد لجأ المفسرون والفقهاء إلى وضع إفادات متضاربة حول عبارة "يضعن ثيابهن"، تنزع ـيـِّ معظمها لوضع قيود ثقيلة على زي المرأة كبيرة السن، وهي خارج دائرة الإشتهاء، ليبرروا بذلك وضع قيود أثقل على تلك الصغيرة. دافعهم ـيـِّ ذلك ما ورثوه من ثقافة الحضارات الذكورية التي تبحث بإستمرار عن كل قيد ممكن للحط من المرأة بما ـيـِّ ذلك تأويل النص الديني وتحميله بمقاصد ليست منه. وإثبات سيادة هذه النزعة المعادية للأنثى لا يحتاج لعناء، ألم يكن ذلك المجتمع الذي أفرز هؤلاء المؤولين هو الذي نزل فيه قوله تعالى "وإذا الموؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت"[36] لأنه مارس القتل المنظم للأنثى لمجرد أنها أنثى؟

لقد تعددت تأويلات المفسرين حول عبارة "يضعن ثيابهن"، حيث منهم الذي قال إن المعني هو وضع الجلباب والذي هو القناع الذي يكون فوق الخمار والرداء الذي يكون فوق الثياب، ومنهم الذي قال إن المقصود من وضع الثياب هو وضع الخمار. هذا التعدد والاختلاف يؤكد ماذهبنا إليه من أن الأمر لا يعدو أن يكون وجهة نظر لأناس غير معصومين عاشوا ـيـِّ مجتمع معين له خصائصه وثقافته التي ألقت بظلالها على آرائهم، وهو شئ طبيعي، إلا أن غير الطبيعي أن تكتسب وجهة نظرهم الخلود والأبدية. فالثياب ببساطة هي ما يلبسه المرء، ووضعها هو التخلص منها بدون أن يعني ذلك العُري. ففي حياتنا اليومية ـيـِّ عصرنا هذا، كمثال، يقوم كلٌ منا بالتحرر من ثيابه بعد دخوله منزله ويبقي ذلك القدر منها الذي يستر عورته ويناسب سنه. وما تريد أن تقوله الآية، إن النساء الكبيرات

---

[36] سورة التكوير – آية رقم (9..8).

في السن يمكنهن التحرر أكثر من غيرهن كأن يلبسن أقصر مما تفعل الصغيرات في السن مثلاً.

في الحقيقة، وبالنظر للآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية، نجد أن السياق في مجمله لا يعدو أن يتعد حدود الآداب المنزلية العامة، والرامية لحماية واحترام خصوصية أهل الدار، بما في ذلك الذكور، ووقايتهم من تطفل الأعين. يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم. والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم. ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون".

من الواضح أن الخالق، عز وجل، لو أراد حبس الناس في زي معين، لما صعب عليه تحديد مواصفات ذلك الزي وخصائصه. إن مرد ذلك، كما تفهمه العقول البريئة من السقم، أن الخالق أراد لعباده التمسك بالفضيلة ونشدان

العفاف بدون أن يقيدهم بقالب محدد ذو طبيعة خالدة، في عالم شاءت إرادته هو نفسه أن يكون متغيراً متجدداً.

ثانيــاً:

"حدثنا محمد بن بشار حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام عن قتادة عن مورق عن أبي أحوص عن عبد الله: عن النبي (ص) قال المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان"[37].

يتم إستخدام هذا الحديث في معرض إثبات وجوب الحجاب، باعتبار أن وظيفة الملبس الأساسية بالنسبة للفكر السلفي هي ستر العورة. والاحتجاج بهذا الحديث تشوبه نواحي ضعف كثيرة من أهمها:

- **هنالك شك كبير في صحة هذا الحديث من الأساس، حيث قال فيه القرضاوي: "تفرد به الترمذي عن سائر أصحاب السنن ولم يصفه بالصحة بل اكتفى بوصفه بالحسن والغرابة وذلك لأن بعض رواته ليسوا في الدرجة العليا من القبول والتوثيق، بل لايخلو من كلام في حفظهم مثل عمرو بن عاصم وهمام بن يحي"[38].**
- **لا يتسق هذا الحكم، المرأة عورة، مع منطق النصوص الصريحة في القرآن الكريم التي تحدثت عن الحشمة بإعتبار أنها تستهدف حماية المرأة، وليس بسبب أنها عورة "يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" - سورة الأحزاب.**

---

[37] سنن الترمزي – باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات – حديث رقم (1173).

[38] النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه – الدكتور يوسف القرضاوي، نقلاً عن كتاب "الحجاب" لجمال البنا.

- **لا يتسق الحديث مع التصور الإسلامي للمرأة، وهو تصور ينظر للمرأة باعتبارها إنسان كامل الإنسانية "النساء شقائق الرجال"، "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة"، "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم".**
- **على فرض صحته، لم يتطرق الحديث لماهية الزي الذي يجب على المرأة المسلمة التحلي به حتى تستر به هذه العورة، كما لم يحدد أجزاء هذا الجسد التي تضفي صفة العورة عليه، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن العورة المقصودة لا تشمل الجسد كله بالضرورة بدليل حديث "لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين"[39] الذي يحرم تماما تغطية الكفين والوجه في الحج مما ينفي انطباق صفة العورة عليهما.**

ثالثاً:

"حدثنا عمرو الناقد حدثنا عيسى بن يونس حدثنا هشام عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قالت أمرنا رسول الله (ص) أن نخرجهن في الفطر والأضحى العواتق والحيض وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين قلت يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب قال لتلبسها أختها من جلبابها"[40].

---

[39] صحيح البخاري – باب ما ينهى من الطيب للمحرم والمحرمة – حديث رقم (1741)

[40] صحيح مسلم – باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة مفارقات للرجال – حديث رقم (890)

- **الحديث لفظاً وسياقاً يحث على التعاون بين الناس، حيث يطلب الرسول (ص) من أولئك اللائي يملكن فائضاً من الجلابيب أن يساعدن إخواتهن اللائي يعانين من نقص فيها. وبطبيعة الحال، وحيث أن الزي المستخدم للمرأة في ذلك الزمان هو الجلباب، فإن توجيه الرسول إنصب في ما هو متاح ومتعارف عليه من لباس. لا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن لبس الجلباب أصبح فرضاً، وإلا لأصبح استخدام الجمال والأرجل فرضاً في الحج إستناداً على آية "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"، كما أسلفنا من قبل.**
- **لم يحدد الحديث طول الجلباب أو المساحة التي يجب أن يغطيها حتى يمكننا استنباط ما إذا كان يمثل دليلاً على وجوب الحجاب أم لا، بل لم يحدد الحديث ماهية هذا الجلباب. فقد جاء في تعريفه بصحيح مسلم "أنه ثوب أقصر وأعرض من الخمار، وهي المقنعة تغطي به المرأة رأسها، وقيل هو ثوب واسع دون الرداء تغطي به صدرها وظهرها، وقيل هو الإزار، وقيل الخمار". ألم يكن من الأسلم لفقهائنا أن ينزعوا لجوهر الحديث الذي يناشد المسلمات أن يساعد بعضهن بعضاً، بدلاً عن هذا البحث الذي لا جدوى منه، لمعانٍ مُتَوهّمة، بهدف واحد، وهو إذلال المرأة عبر الطرق المتواصل في موضوع زيها، وكأنها خلقت فقط لشغل الرجال عن العمل النافع وإعمار هذه الأرض التي بسطها الخالق لهم؟!!**

رابعاً:

"حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا هشيم قال انا يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن عائشة قالت: كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله (ص) محرمات

فـإذا حـاذوا بنـا أسـدلت إحـدانا جلبابهـا مـن رأسـها علـى وجههـا فـإذا جاوزنـا كشفناه"[41].

يساق الحديث كدليل على وجوب الجلباب باعتباره اللباس "الشرعي" للمرأة المسلمة، بدليل إرتداء أم المؤمنين عائشة له، كما يساق أيضاً بإعتباره دليلاً على وجوب الحجاب حيث أن الجلباب من المفترض أن يغطي كل جسد المرأة بما في ذلك الرأس والوجه.

- **الحـديث مـن الأحاديـث الضـعيفة بـدليل تعليـق شـعيب الأرنـؤوط: " إسـناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد"، وأيضاً تضعيف الشيخ الألباني له.**
- **الأحاديـث والآيـات المتعلقـة بأمهـات المـؤمنين، كـالملبس ومـا إليـه، لا يمكـن القيـاس عليهـا، وقـد أثبتنـا هـذه النقطـة في مناقشـتنا لآيـة "وإذا سـألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب" التي سبق الإشارة إليها من قبل.**
- **الحـديث لا يـدل علـى وجـوب الحجـاب، فهـو لا يحـدد المسـاحات الـتي يجـب تغطيها من الجسد، كما أن معنى الجلباب مختلف عليه كما أوضحنا في مناقشتنا للحديث السابق "..لتلبسها أختها من جلبابها".**
- **إن القـول بوجـوب سـلوك معـين فقـط لأن الرسـول (ص)، وزوجاتـه، وأصـحابه كـانوا يسـلكونه بـدون وضـع إعتبـار لفـارق الزمـان والمكـان والبيئـة، كمـا هـو الحال في التعامل مـع مسـألة الجلبـاب، يوصـل النـاظر لنتـائج مريكـة للغايـة، ولا علاقة لها بالدين ومقاصده من قريب أو بعيد. فقياسـاً علـى ذلـك يمكـن إعتبـار الإرداف بين راكبين عند السفر الجماعي من قبيل الفرض والواجـب،**

[41] سنن أبي داؤد – بـاب في المحرمـة تغطـي وجههـا – حـديث رقـم (1833). ورد أيضـاً بـنفس الصيغة بمسند أحمد بن حنبل – حديث رقم (24067).

حيث ورد في عشرات الأحاديث الإشارة أن الرسول (ص) كان يردف أصحابه وزوجاته في دابته، حيث يمكن إيراد الأمثلة الآتية من صحيحي البخاري ومسلم للدلالة على ذلك:

- حدثنا أنس بن مالك: أن النبي (ص) ومعاذ **رديفه** على الراحل قال: يا معاذ بن جبل ..
- عن أنس: أن رسول الله (ص) غزا خيبر فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس فركب نبي الله (ص) وركب أبو طلحة وأنا **رديف** أبي طلحة..
- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل **رديف** رسول الله (ص) فجاءت امرأة من خثعم ...
- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينما أنا **رديف** النبي (ص) ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل..
- عن أسامة بن زيد أنه كان **رديف** رسول الله (ص) حين أفاض من عرفة...
- قال أنس بن مالك: أقبلنا مع النبي (ص) أنا وأبو طلحة وصفية **رديفته** على ناقته ..

وهكذا، يمكن تقديم مئات النماذج على تعسف الفقهاء فيما ذهبوا إليه من إعطاء قدسية لأشياء معتادة في الحياة اليومية في ذلك الزمن البعيد. فهذا الحديث وغيره من الأحاديث والآيات التي تطرقنا إليها في هذه الدراسة، أقرت بوجود الخمار والجلباب عند نساء العرب و لم تأمر بهما، فالإقرار بالوجود لا يعني الإقرار بالوجوب.

ويسألونك عن النقاب

النقاب، كما هو معلوم، تغطية المرأة للوجه بالكامل وإخفاء كل ملامحها باعتبار أن الوجه زينة، وأن إظهار الزينة محرم في نظر الفكر السلفي. يستلزم التعرف على شخص ما، النظر في وجهه والإطلاع على ملامحه، لأن الوجه يشتمل على المعالم الأساسية لهوية الشخص رجلاً كان أم إمرأة. على ضوء ذلك، يصبح النقاب ليس فقط حطاً من شأن المرأة باعتبارها أداة إشباع للشهوة، بل يجردها حتى من صفة أنها كائن آدمي. أي بعبارة أخرى يحولها لشئ، إذ يستكثر عليها أبسط حقوق الكائن الآدمي، وهو الهوية المستقلة.

إن الدين الذي جعل أساس التفضيل بين الناس، رجالاً ونساءاً هو التقوى بدليل: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[42]، وساواهم بالتالي في القيمة، لايمكن أن تحتوي تعاليمه بما يخالف ذلك؛ كأن يجعل نصف هؤلاء الناس أشياء مثلها

---

[42] سورة الحجرات – آية رقم (13).

مثل الأنعام والجمادات. لقد ساهمت أسباب كثيرة، تعرضنا لها سابقاً، في خلق فكر سلفي يتميز بنظرة سلبية تجاه الحياة بشكل عام، وينزع باستمرار لتفسير نصوص الدين من واقع هذه النظرة السلبية، حتى لو أدى ذلك لتجاهل وإزدراء أعظم ما قدمه الخالق للإنسان، وهو العقل. إن النظر في ما يطرحه الفكر السلفي لموضوع النقاب يعتبر نموذجاً ساطعاً للتعسف في تفسير النص بما يرضي ذلك الفكر، حتى لو أدى ذلك لمخالفة نصوص أكثر صحة من تلك المتعسف عليها.

أدناه، مختصر للأدلة التي يقدمها الفكر السلفي في إثبات مشروعية ووجوب النقاب ووجهة نظرنا في تلك الأدلة والبينات:

أولاً:

"لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين"[43].

يستخدم البعض من دعاة النقاب هذا الحديث للتدليل على وجوب النقاب بفرضية أنه لو لم يكن النقاب هو الأصل وأنه هو الزي المتعارف عليه في الأحوال العادية، لما تم التطرق إليه واستثناؤه في الإحرام. فالاستثناء يفترض وجود قاعدة، والقاعدة أن النساء مفروض عليهن لبس النقاب! ليس هذا فحسب، بل يصر بعضهم بأن تغطية الوجه واجبة حتى في الأحرام، وأن المقصود بالمنع في الإحرام هو النقاب الذي يعني في نظرهم قطعة القماش ذات الفتحتين المفصلة على الوجه، ودليلهم على ذلك حديث ضعيف جداً منسوب للسيدة عائشة قالت فيه: "كنا مع النبي (ص) ونحن محرمون. فإذا لقينا الراكب أسدلنا ثيابنا من

---

[43] صحيح البخاري – باب ما ينهى من الطيب للمحرم والمحرمة – حديث رقم (1741).

فوق رءوسنا"[44] ، رغم الحقيقة المعلومة بأن وضع نساء الرسول (ص) وحجابهن مختلف أصلاً، بشكل لايصح القياس عليه، عن وضع نساء المسلمين كما أوضحنا بالتفصيل سابقاً.

ولأن الهدف واضح لدى الفكر السلفي في شكله المتطرف وهو تكميم المرأة بأي وسيلة، حتى ولو بِلَيْ عنق النص الديني نفسه، فإنه تجاوز عن أن حديث "لا تنتقب المرأة" نفسه يصرح في نفس موضوع لبس الأحرام: "لا تلبسوا القميص ولا السراويلات ولا العمائم ولا البرانس إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفين وليقطع أسفل من الكعبين ولا تلبسوا شيئا مسه الزعفران ولا الورس"، فهل يعني منع لبس القميص أو العمامة عند الإحرام مثلاً، أن لبسهما واجب في الحياة العادية، استناداً على نفس منطق فرض النقاب في الأحوال العادية؟ وأن التطيب بالزعفران في غير أيام الإحرام فرض لا محيص عنه باعتبار أن ما أستثني في الأحرام دليل على وجوبه في غير ذلك، كما هو الأمر في تأويلهم لوجوبية النقاب إستناداً على هذا الحديث؟

ثانياً:

"جاءت إمرأة إلى النبي (ص) يقال لها أم خلاد وهي منتقبة تسأل عن ابنها وهو مقتول فقال لها بعض أصحاب النبي (ص) جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة ؟ فقالت إن أرزأ ابني فلن أرزأ حيائي فقال رسول الله (ص): ابنك له أجر شهيدين. قالت: ولم ذاك يارسول الله ؟ قال: لأنه قتله أهل الكتاب" [45].

---

[44] سنن ابن ماجة – اب المحرمة تسدل الثوب على وجهها – حديث رقم (2935)

[45] سنن أبي داؤد – باب فضل قتال الروم على غيرهم من الأمم – حديث رقم (2488)

يستخدم دعاة النقاب هذا الحديث للتدليل على أن لبس النقاب هو السبيل لتحقيق قيمة الحياء للمرأة، وهي الصفة المطلوبة دينياً ومرغوبة اجتماعياً، باعتبار تصريح أم خلاد بأن حياءها أهم لديها من إبنها. كما أنهم يعتبرون أن عدم إعتراض الرسول (ص) على نقابها يعني ضمناً إقراره له. وفي الواقع ينهض هذا الحديث دليلاً على كراهة النقاب أكثر من أنه دليل على مشروعيته، وذلك للآتي:

- الحديث من الأحاديث الضعيفة بمعايير علم الحديث، ضعّفه الألباني وغيره.
- الحديث يشير بوضوح إلى أن النقاب كان أمراً شاذاً بدليل استغراب، بل إستنكار الصحابة، الواضح من قولهم "جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة".
- كون أن الرسول (ص) لم يؤاخذها عليه، لايعني أنه اكتسب شرعية دينية، أو أصبح واجباً دينياً. فالناس كانت تطبخ بالحطب في زمن الرسول، كمثال، بل إن الرسول (ص) ذكر الحطب في بعض أحاديثه كقوله: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" [46]، فهل يعني هذا أن الطبخ بغيره غير جائز، أو أن الحطب له أفضلية دينية أو مكانة خاصة؟

---

[46] صحيح البخاري - باب الاستعفاف عن المسألة - حديث رقم (1402)

ثالثاً:

عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك وهم راجعون من غزوة بني المصطلق: "وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي.."[47].

يردد دعاة النقاب هذا الحديث باعتبار أنه يشتمل على دليلين يؤيدان وجوب النقاب، حيث إن كلاهما يثبت أن السيدة عائشة كانت تغطي وجهها في كل الأحوال، وبالتالي يجب على المسلمات التقيد بذلك. يستند الدليل الأول على عبارة "كان رآني قبل الحجاب" التي تعني أنه عرفها من وجهها لأنه رآها قبل الحجاب، إذ ليس هنالك احتمال لرؤيتها، وبالتالي تمييز وجهها، بعد الحجاب مما يعني أن الحجاب يشمل تغطية الوجه. ويستند الدليل الثاني على عبارة "فخمرت وجهي بجلبابي" التي تؤكد أن السيدة عائشة غطت وجهها تماماً عندما انتبهت لوجود رجل قريب منها، مما يؤكد حقيقة أنه ليس مسموحاً لها كشف وجهها في وجود رجل. في رأينا، لا يمكن لهذا النص أن يكون دليلاً على وجوب الحجاب وذلك للآتي:

- **لقد أثبتنا في مناقشتنا للدليل المباشر الأول وهو الآية 53 من سورة الأحزاب: "وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب"، أثبتنا أن ذلك الخطاب كان موجهاً لنساء النبي (ص)، وأنه لا ينطبق على نساء المسلمين، حيث صرحت الآية نفسها والآيات التي سبقتها بذلك. وكمثال: "وما كان**

[47] صحيح البخاري – باب حديث الإفك – حديث رقم (3910)

لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا"، " يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا"، "يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا".

- كيف يستقيم عقلاً وديناً أن نلجأ للتأويل البعيد ونترك الصريح الواضح؟ هنالك الكثير من الأحاديث الصحيحة، التي تفيد بكشف الوجه والتي تعرضنا لها من قبل، حيث من ضمنها حديث تجمَل سبيعة بنت الحارث للخُطاب، وحديث المرأة الخثعمية التي كان ينظر إليها الفضل أخ إبن عباس في حجة الوداع، وحديث المرأة التي جاءت تهب نفسها للرسول، وحديث أن النساء كن يتوضأن مع الرجال في المسجد؛ إضافة لحديث سفعاء الخدين والذي جاء كالآتي: "عن جابر بن عبدالله قال: شهدت مع رسول الله (ص) الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكأ على بلال فأمر بتقوى الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين فقالت لم يا رسول الله؟ قال لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير قال فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن"[48]. وسفعاء الخدين تعني أن بهما تغيراً وسواداً مما يعني أن وجه المرأة كان

[48] صحيح مسلم – كتاب صلاة العيدين – حديث رقم (885)

كاشفا وهي بالمسجد. لتلافي استخدام هذا الحديث كحجة ضدهم، حاول بعض دعاة النقاب تأويل كلمة سفعاء، رغم أن المعنى واضح لغوياً، بإعتبار أن المقصود منها أن المرأة كانت جريئة ذات رعونة، وحاول آخرون الاستناد على رواية أخرى تفيد بأن المرأة كانت من سفلة القوم أي ليست من عاليهم رغم أن التكاليف الدينية لم تكن يوماً مرتبطة بالتركيب النفسي أو التوجه السلوكي أو الوضع الاجتماعي للفرد!! الغريب أن تتم كل هذه التأويلات رغم أن الرسول (ص)، صاحب البلاغ نفسه، لم يستنكر كشف هذه المرأة لوجهها لا تلميحاً ولا تصريحاً!!

رابعاً:

"يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما"[49].

لقد أثبتنا من قبل بأن هذه الآية نزلت في الأصل لتمييز الحرائر من نساء المسلمين عن الإماء حتى لا يتعرضن لمضايقات الفساق بالمدينة، وسردنا موقف عمر بن الخطاب من الإماء اللآئي كن يدنين جلابيبهن تشبهاً بالحرائر. كما أبنا بأنها لا تنادي بالحجاب بمعناه الذي يطرحه الفكر السلفي حيث أن الجلباب هو غطاء الجسم وإدناؤه إنما يكون بمده إلى أسفل. بيد أن السلفيين المتطرفين، أصحاب دعوة النقاب، وجدوا بها ضالة لهم، وهو الشطر من الآية الذي يقول "ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين". حيث جرى تأويل بعيد يقوم على أن المعرفة والتمييز تتم نتيجة لكشف الوجه، وبالتالي لتجنب هذه المعرفة لا بد من تغطية

[49] سورة الأحزاب – آية رقم (59)

الوجه، عليه يصبح الإدناء المطلوب المقصود هو تطويل جزء من الجلباب يمكِن من تغطية الوجه!! وفي هذا نقول:

- إذا كان المقصود بكف الأذى عن الحرائر هو تغطية الوجه، لما صعُب على الخالق التصريح بوضوح بأن على نساء الرسول وبناته ونساء المؤمنين وضع قناع على وجوههن!
- المعرفة المقصودة والمطلوبة لحماية المسلمات من الأذى لا تتم عبر التمعن في الوجوه، وانما في وجود "شارة" تُمكِّن مسببي الأذى المحتملين من فرز فريستهم في الظلام وهذه "الشارة" لابد من أن تكون واضحة لهم، لذا كان طول الملابس "إدناء الجلباب" هو الأنسب بداهة.
- إن تغطية الوجه تجعل من مهمة التعرف على نساء الرسول (ص) وبناته ونساء المؤمنين وتمييزهن عسيراً، مما يجعل إحتمال تعرضهن للأذى أكبر، فبالتالي لا يعقل أن يكون الإدناء المقصود به تغطية الوجه. وفي الواقع، أفاض المفسرون في توضيح أن التعرَف والتمييز لتجنب أذى الفساق هو مقصد الآية، فإبن كثير مثلاً يقول: " فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها".
- الحكمة من الادناء، كما أسلفنا، هي التعريف بهوية السائرات في الطريق حتى لايؤذين. فإذا تمكن الناس، بحكم التطور، من حماية المسلمات من الأذى بوسائل أخرى؛ فما الداعي إذاً لإستخدام تلك الوسيلة البدائية جداً التي كانت تؤدي ذلك الدور سابقاً، خاصة وأن نساء اليوم كلهن حرائر، فلا وجود للإماء حتى تكون هنالك حوجة للتمييز من الأساس!؟

- إذا كان الهدف من هذا كله هو الحفاظ على الفضيلة والعفاف، فإن هذا الهدف أصعب مايكون بإستخدام النقاب. فكيف يتمكن المجتمع من مراقبة أحد أطراف الرزيلة المحْتَمَلين، وفي هذه الحالة المرأة، إذا كانت مغطاة بشكل لا يتيح لهذا المجتمع التحقق من هويتها؟ أنه من المعلوم بداهة أن الخشية من المجتمع هو أحد الأذرع الهامة جداً في تحقيق الانضباط السلوكي حيث يراقب الناس بعضهم بعضاً بشكل يجعل الشخص القاصد للرزيلة يتردد في فعلها حتى لا يفتضح أمره ويذاع خبره بين الناس، فكيف يتم تحقيق ذلك إذا أتحنا لهذا الشخص الاختفاء بسهولة شديدة عن أعين هذا المجتمع؟ أمر آخر، كيف يمكن تحقيق الأمر الإلهي بغض البصر، إذا جعلنا لنصف البشر الحق في النظر للطرف الآخر كيفما ووقتما يريد بدون خوف، من تحت النقاب؟ أليس الخوف من المجتمع هو أحد العوامل الرئيسية الرادعة لذوي النفوس الضعيفة؟

كلمة حق أخيرة في أمر الحجاب

لا نزعم أن هذه المساهمة في معالجة أمر ما يسمى بالحجاب الإسلامي تمثل فتحاً عبقرياً، أو منبعاً للحكمة وفصل الخطاب؛ في هذا الشأن الذي استنزف طاقة المجتمع المسلم لسنوات طويلة، وأقعد به عن آداء دوره المنشود في ريادة العالم المعاصر. إن غاية مايطمح إليه كاتب هذه السطور هو الإضافة لجهد عظيم ومثابر، إطلع به العشرات من الكتاب والمفكرين على تعاقب أجيالهم، وضعوا نصب أعينهم مهمة جليلة تهدف لإضاءة الطريق أمام شعوبهم عبر تنقية تراثهم وتخليصه مما علق به من شوائب عاقت تقدمها للأمام، وذلك باستلهام ماهو قمين بالإتباع ونبذ ما هو جدير بالتجاوز. لا بد لي أن أنحني لهم جميعاً، ولكم تمنّيت أن أقّبل بصفة خاصة، إمتناناً بغير حدود، أيدي إثنين من المعاصرين أحاطا بأمر هذا "الحجاب" إحاطة عظيمة، ورفدا المكتبة العربية بأعمال مفتاحية بشأنه، كانت هي الأساس الذي بنيت عليه الأفكار الواردة في هذا الباب، وهما الأستاذان العملاقان جمال البنا، والمستشار محمد سعيد العشماوي رحمهما الله.